متحف الأرواح

أسرار عائلة كويتية



م. عبدالوهاب السيد الرفاعي





الطبعة العاشرة

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

متحف الأرواح

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

في الأمس.. أثناء صعودي درجات السلّم
صادفت رجلا غير موجود
ولم يكن موجودا اليوم أيضا
أتمنى.. أتمنى أن يرحل ([1])

الطائرة تهتز قليلا.. لكني أحاول أن أتماسك أثناء وقوفي في دورة المياه الصغيرة الضيقة التي تعتبر علامة مميزة لكل الطائرات تقريبا.. أحاول أن أضع بعض مساحيق التجميل وأرتب شعري القصير.. أعدل قليلا من قميصي البني الذي يجعلني أبدو أكثر نحولا مما أنا عليه.. القميص تجعّد بعض الشيء بسبب الرحلة الطويلة لكن لا بأس.. ضوء العودة إلى الكرسي وصوت المضيفة وهي تذكّر الجميع بربط أحزمة الأمان.. أنظر إلى نفسي في المرآة.. شعور لا بأس به بالانتعاش لكنه لا يكفي لإزالة آثار الإرهاق من السفر.. أخرج بعدها من دورة المياه لأعود مسرعة إلى الكرسي وقد بدأ الهبوط التدريجي على أرض (الكويت).

أغمض عيني كما أفعل في كل مرة تهبط فيها الطائرة.. لا أعرف السبب.. هل هو الدوار الذي يصيبني دوما في لحظات الهبوط؟!.. أم هو ذلك التوتر الذي يصيب معدتي؟!.. لكني لا أنكر -رغم ذلك- شعور الفرح الذي يسيطر علي.. فهي المرة الأخيرة التي أهبط فيها على أرض (الكويت) دون التفكير بقصر مدة إجازتي والعودة مرة أخرى إلى حياة الدراسة التي مللتها بحق في (الولايات المتحدة الأمريكية).. لقد تخرجت بعد سنوات مريرة شعرت فيها أنني لن أتخرج أبدا وسأظل طالبة طوال حياتي.. لأصبح أخيرا فتاة جامعية في الثالثة والعشرين من العمر تحمل شهادة البكالوريوس في علوم الكمبيوتر ومقبلة على حياة جديدة لن تنقسم في بلدين كما كان الحال في السنوات ال 5 الماضية.. ولن ألتقي مرة أخرى بأساتذتي الذين كنت أكن لهم كراهية كبيرة رغم أن معظمهم -والحق يقال- كانوا في قمة الرقي والاحترام.. لكن هذا لم يمنع أن أرى كلاً منهم كجنرال نازي يملك حكم إعدامي في أية لحظة.. مع رعب الاختبارات الذي أصابني بالمغص أحيانا كثيرة.

أتطلع بفضول عبر النافذة كوني أجلس بمحاذاتها.. ليل (الكويت) يبدو جميلا من الأعلى مع تلك الأنوار التي تشع من المباني البعيدة والظلام الذي يحجب إلى حد كبير منظر الصحراء.. فتنتظر بحنين لحظة عناق وطنك رغم كل مساوئه.. أعود وأغمض عيني مع اقتراب لحظة الهبوط.. و.. ها هي عجلات الطائرة تصطدم بالأرض بشيء من القوة.. الجميع يشعرون بالإرهاق الشديد بعد رحلة شاقة امتدت أكثر من 13 ساعة تخللتها مطبات هوائية ([2]) شعرت خلالها أن رأسي يحوي بذرة مانجو تتحرك داخله باستمرار.. الطائرة تهتز وهي تخفف سرعتها تدريجيا.. أسمع صوت الكابتن يشكرنا على اختيارنا ل(الخطوط الجوية الكويتية).. ليلحقه بعدها بلحظات قليلة صوت فك أحزمة الأمان في كل مكان حولي.. وأقف سريعا كحال عدد كبير من المسافرين.. جميعنا نترقب لحظة الخروج من الطائرة بعد ساعات طويلة من الملل القاتل.

ها أنا آخذ حقيبتي الصغيرة من خزانة الحقائب فوق مقعدي.. أصطدم بهذا وذاك.. وأغمغم بكلمات اعتذار لم يهتم لها أحد من شدة الإرهاق.. أترقب بنفاد صبر إلى أن رأيت طابور المسافرين يتحرك ليخرجوا من الطائرة واحدا تلو الآخر.. فأسير على عجالة وأخرج بدوري من الطائرة أخيرا ليزول فجأة جزء كبير من الإرهاق!!!.. هذا متوقع.. فالحالة النفسية تلعب دورا هاما هنا.. لكن.. هناك سجن آخر صغير علي عبوره.. وهو طابور الجوازات وانتظار الحقائب التي تجعلك تظن للحظة أنك لن تخرج أبدا من هذا المطار.. غريب أن تتحمل الدراسة في الخارج لسنوات وتتحمل ساعات السفر الطويلة.. لكنك بالمقابل لا تستطيع الانتظار ساعة أخرى أو ربما أقل.. لكني لم أنتظر طويلا لحسن الحظ.. فقد أنهيت إجراءات الدخول سريعا.. ووجدت حقائبي تخرج سريعا أيضا على غير العادة.

لا أعرف لماذا اصطدَمْت بالواقع فجأة حال استلامي حقائبي واقترابي من بوابة الاستقبال!!.. لقد أنستني نشوة التخرج كل شيء.. إذ لن يكون هناك احتفال باستقبالي رغم أنني أنتمي إلى أسرة كبيرة

في عدد أفرادها.. فجميع أشقائي وشقيقاتي متزوجون وكل منهم يعيش حياته مستقرا في بيته مع أبنائه وقد أشغلتهم عني ظروف الحياة.. إنهم حتى لم يتصلوا بي كثيرا في أثناء دراستي في الخارج.. بل كنت أنا من أتصل بهم غالبا لأسأل عنهم.. دعكم من مشكلة الفارق العمري الشاسع بيني وبينهم.. فأنا أصغرهم سنا.. وشقيقي الذي يسبقني بالعمر يكبرني ب 8 سنوات كاملة.. تخيلوا هذا.

لقد كنت يوما طفلتهم المدللة التي يتسابقون لتلبية احتياجاتها.. حتى إن صديقاتي في مراحل الدراسة كن يحسدنني لأن لي عددا كبيرا من الآباء والأمهات -على حد قولهن- بسبب الاهتمام الزائد الذي حصلت عليه من الجميع.. لكني لم أعد طفلة الآن.. لقد كبرت.. وأصبحت مسؤولة عن نفسي.. أتذكر تلك الحقيقة المؤلمة وأنا أعبر نقطة تفتيش الحقائب ثم بوابة الاستقبال ولا أجد أحدا باستقبالي سوى شقيقتي الكبرى مع ابنتها التي تكبرني بعامين تقريبا.. أراهما تلوحان لي ببلاهة.. فأبتسم لا إراديا وأتجه ناحيتهما.. تحتضنني شقيقتي وتقبلني وتمسح على شعري.. ثم تمسك وجهي بكلتا يديها وهي تقول:

-لقد نحفت كثيرا منذ زيارتك الأخيرة.. ألا تأكلين؟!!.

غمغمت مبتسمة:

-إنها الرياضة فحسب.

أقول هذا وشقيقتي تضحك وتبارك لي تخرجي.. ألتفت لأحتضن ابنة شقيقتي التي تبارك لي بدورها وتمطرني بالقبلات.. لا أعرف لماذا أشعر بشيء من البرود في هذا الاستقبال!!!.. ربما علي أن أعترف أنني فقدت أجواء العائلة الحميمة مع تقدم أشقائي وشقيقاتي بالسن وبعد أن أصبح لكل منهم حياته المستقلة.. خاصة أنني بقيت وحيدة مع أبي الذي رحل عن عالمنا منذ حوالي سنتين لم أعد خلالهما إلى (الكويت) إطلاقا.. ليلحق بأمي التي سبقته إلى مثواها بسنوات قليلة.. رحمهما الله معا.

نسير أخيرا ناحية السيارة والعامل الآسيوي يتبعنا ويدفع العربة التي تحوي 5 حقائب كاملة اضطررت بسببها لدفع مبلغ إضافي لشحنها.. وهذا أمر طبيعي.. فأنا أنقل حياتي بأكملها إلى (الكويت) بعد تخرجي وسأكون على أعتاب مرحلة جديدة منذ هذه اللحظة.. سيكون علي البحث عن وظيفة وشراء سيارة والبدء بالاستقرار.. مع أطنان من الورق علي إنجازها.. لكن.. أحاول أن أطرد تلك الأفكار من رأسي الآن.. سأقضي شهرا كاملا أولا في إجازة لا أفكر فيها بشيء إطلاقا لأستمتع بوقت الفراغ وراحة البال التي طالما تمنيتها.

أتحدث مع شقيقتي وابنتها بحماس في السيارة.. ويقطع حديثنا كل لحظة اتصال هاتفي من أحد أشقائي أو شقيقاتي وكل منهم يريد أن يقوم بواجبه ويبارك لي تخرجي.. لكنها تبريكات باردة لا طعم لها رغم أصواتهم التي يحاولون بث روح الحماس والفرح فيها!!!.. أعلم جيدا أنها كلمات المجاملة فقط.. خاصة أن أحدا منهم لم يتكبد عناء الحضور إلى المطار وهو أمر توقعته إلى حد ما بعد فتور العلاقة بيننا و.. أخيرا.. تتوقف السيارة أمام بيت أكبر أشقائي والذي يكبرني قرابة العشرين عاما.. نعم.. سيكون بيته مسكني الجديد.. فقد قام أشقائي ببيع بيت العائلة في منطقة (القادسية) بعد شهور من وفاة أبي ليحصل كل منا على نصيبه من الورث.

أتذكر أنني في البداية رفضت الفكرة رفضا قاطعا لارتباطي الشديد بهذا البيت الذي عشت فيه طوال حياتي.. وكونه المكان الوحيد الذي سيأويني بعد تخرجي.. لكن إلحاح أشقائي المستمر

وشكواهم من مصاعب الحياة وحاجة كل منهم لنصيبه من الورث.. ومع رفضهم القاطع لبقائي وحيدة في بيت العائلة بعد تخرجي.. وأن شقيقي الأكبر تحديدا يرحب بإقامتي في بيته حين عودتي النهائية إلى أرض الوطن و... إلى أن شعرت أنهم جميعا قرروا ووافقوا وأن نقاشهم تحصيل حاصل فحسب.. لذا وافقت أخيرا تحت ضغوطاتهم.. ولأنني كنت بحاجة ماسة إلى المال أيضا.. فكل من يعيش في الخارج يعلم أن راتب البعثة الحكومية لا يكفي أبدا.. وافقت معتمدة على المقولة الشهيرة: ((يحلها ألف حلال)).. لكني عرفت الآن أن تلك المقولة سخيفة للغاية.. وأن الهروب من مشاكلك سباق لن تكسبه أبدا!!!.

لا أنكر أن شقيقي الأكبر قد استعد جيدا لاستقبالي.. ولا أنسى كيف احتضنني وهو يرحب بي وكأنني عدت إلى بيتي أخيرا.. يعتذر عن عدم حضوره للمطار ويشرح الأسباب التي منعته من ذلك بكلمات سريعة لم أكترث لها كثيرا.. زوجته تنتظر دورها في الترحيب بي أيضا.. ثم أعانق أبناءه واحدا تلو الآخر.. مع لقب عمتي الذي أسمعه من بعضهم رغم فارق السن البسيط بيننا.. أحمل حفيدة شقيقي الأولى وأحاول مداعبتها.. آي.. لحظة سخيفة حين يصفعك طفل صغير أمام والدته فتبتسم مجاملة لها لكن دمك يغلي في الواقع.. عموما.. أكثر من نصف ساعة قضيتها في الرد على التحية والحديث السريع عن التخرج والشكر على تبريكاتهم.. قبل أن يأخذوني بحماس إلى غرفتي الجديدة التي سأعيش فيها إلى يوم زواجي على الأرجح.. لأُصدم بأنني سأشاطر ابنة شقيقي غرفتها!!!.. ابنة شقيقي التي لا تزال طالبة في المرحلة الثانوية.

أعترف أنني أصبت حينها بمشاعر جمود بدت واضحة على ملامحي!!!.. فقد كنت دوما أسكن غرفة لوحدي.. وتعلمت طوال حياتي على الخصوصية.. أين ستكون الخصوصية حين أشاطر أحدا غرفته؟ !!.. كما أنني لا أعرف أبناء أشقائي وشقيقاتي جيدا بعد غيابي عنهم كل هذه السنوات سوى من زيارات قليلة في إجازاتي التي كنت أقيم خلالها في بيت العائلة بطبيعة الحال قبل وفاة أبي.. دعكم أيضا من أنني لم أعد إلى (الكويت) منذ حوالي سنتين كما ذكرت في البداية.. من الصعب أن يذوب الجليد بيننا بعد كل هذا.. وربما لن يذوب أبدا.

يبدو أن شقيقي قد قرأ ما بذهني.. إذ قال سريعا:

-(مريم) ترحب كثيرا بمشاطرتك لغرفتها يا (صغيرة)!!!.. تأكدي من ذلك.

و(مريم) هي ابنة شقيقي بالطبع.. أما (صغيرة) فهو اسمي!!!.. نعم.. أعلم أنه اسم غريب لكن أمي رحمها الله أصرت عليه كوني آخر العنقود.. ألتفت إلى (مريم).. فأراها تبتسم بحماس وصدق.. ستتغير هذه الابتسامة يا عزيزتي.. وستملين وجودي مع مرور الأيام دون شك بعد أن اعتدت بدورك على حياة الخصوصية!!!.

أرجأت التفكير في هذا الأمر وأنا أسمع شقيقي يتنحنح ويطلب من الجميع الخروج كي أنفرد بنفسي قليلا.. مع التذكير أن العشاء سيكون جاهزا بعد قليل وأنني سأكون سعيدة في إقامتي هنا إلى أن يأتي النصيب على حد قوله.. أبتسم مجاملة لكلامه.. ثم أغلق الباب خلفي وأنا أخلع ثيابي شاعرة بحزن عميق لا أعرف سببه.. إنني إنسانة اجتماعية جدا.. ولي صداقات عديدة تركت بعضها في (الولايات المتحدة الأمريكية) على وعد بالتواصل المستمر.. ولي صديقات في (الكويت) أيضا بطبيعة الحال.. لكني أشعر بالوحدة رغم ذلك ولا أفهم السبب.. أرتدي روب الاستحمام شاعرة بانتعاش شديد كحال كل من ينزع ثيابا ارتداها على مدى يوم كامل مسافرا من أقصى العالم إلى أدناه.. لآخذ حماما ساخنا سريعا أزال عني كل ذرة تعلقت بجسدي من (الولايات

المتحدة الأمريكية).. وأنزل بعدها إلى الطابق الأرضي لتناول العشاء في جو عائلي يفترض أن يكون حميما!!!.

وهكذا بدأت عجلة حياة ما بعد التخرج تدور ببطء في بيت شقيقي مع ذلك الاضطراب الذي أصاب نومي.. أتحدث عن اضطراب الرحلات الجوية الطويلة الذي أصاب ساعتي البيولوجية.. وهو ما يطلق عليه الأمريكان اسم (Jet lag) ([3]).. فكنت في البداية أنام في التاسعة مساء لأستيقظ في الثانية فجرا غير قادرة على العودة إلى النوم.. لأظل على هذا الحال عدة أيام قبل أن تنتظم حياتي أخيرا.. تنتظم من ناحية النوم فقط!!!.. أما تجربة الإقامة في بيت شقيقي فلم تكن سارة إطلاقا.

فبعد أقل من شهر قمت خلاله بتقديم طلب توظيف في ديوان الخدمة المدنية واشتريت سيارة جديدة التهمت جزءا كبيرا من نصيبي من ورث أبي.. وبعد أيام هادئة قضيتها في الخروج مع صديقاتي وزيارة أفراد الأسرة من باب الواجب فحسب.. حدث ما توقعته.. حين شعرت أن ابنة شقيقي بدأت تمل وجودي في غرفتها!!!.. ولا ألومها على ذلك في واقع الأمر بعد أن جاءت امرأة دخيلة -وإن كانت عمتها-لتلغي الخصوصية من حياتها.. المشكلة أنني لست بعيدة عن جيلها وعالمها.. لذا لم يكن عسيرا أنْ أكتشف أنّ لها علاقة غرامية بشاب ما وهي عاجزة عن التحدث معه بسبب وجودي المستمر في غرفتها.. أتذكر الضيق الذي بت أراه واضحا على ملامحها.. مع التبدل الواضح والتحفظ الشديد في تعاملها معي.. فلا أنسى المرات الكثيرة التي تصدف ذهابي إلى الصالة لأراها تهمس لوالدها أو والدتها بأمر ما لا أحتاج إلى الكثير من الذكاء لأعرف أنه يخص وجودي بينهم.. لكني ظللت صابرة شاعرة بشيء من العجز كوني لا أملك المال الكافي حاليا للخروج والإقامة بمفردي.. ناهيكم عن أن أشقائي لن يسمحوا لي بذلك أصلا.. لكني صورت نفسي قادرة على إقناعهم عند توظيفي في إحدى وزارات الدولة.. دعكم من الإحباط الذي أصابني أكثر من مرة بسبب الكلام الذي أسمعه بين الحين والآخر عن قريبتي التي لم تحصل على وظيفة رغم مرور 6 شهور على تخرجها.. وقريبتي الأخرى التي لا تزال تنتظر منذ حوالي سنة!!!.

وقد تفاقم الشعور بالإحباط والعجز في ذلك اليوم تحديدا حين رحت أبحث عن أغنية أسمعها في هاتفي قبل الخلود إلى النوم.. أمر على الأغاني واحدة تلو الأخرى.. فكل منا لديه أغنية في قائمة الأغاني لا يستمع إليها أبدا لكنه يرفض مسحها ولا أعرف السبب!!.. المهم أنني اخترت أغنية هادئة وقمت بوضع السماعتين في أذني آملة أن أزور عالم الأحلام.. إنها تلك اللحظات حين تكون الموسيقى صديقك الوحيد.. أحاول قبل النوم أن أرسم سيناريوهات وأحداثا مستحيلة الحدوث كما نفعل دوما ونحن تحت اللحاف.. لكني لسبب ما لم أنم بسرعة.. فقد انتهت الأغنية وظلت السماعات في أذني وأنا بكامل وعيي.. لأنتبه أن هناك من يتحدث همسا!!!.. حاولت أن أرهف السمع.. إنه صوت ابنة شقيقي وهي تتحدث في الهاتف بصوت منخفض للغاية لكنه مسموع.

كانت تتحدث مع الطرف الآخر بصيغة الأنثى على سبيل الاحتياط كما يبدو.. لكني لم أكن غبية لأعرف من سياق الكلام أنها تتحدث مع شاب!!!.. ولا أنسى كيف كانت تشتكي من وجود عمتها اللعينة التي منعتها من محادثة حبيبها بحرية كما كانت تفعل في السابق.. ولولا الخجل وإرضاء والدها.. لطردتني من غرفتها دون تردد على حد قولها!!!.. عموما هي ليست بحاجة لقول هذا الكلام.. فقد بت أراه في تصرفاتها وملامحها مؤخرا.. لكن.. أن أسمعها تقوله لشخص غريب فالأمر يختلف!!.

أعترف أنني شعرت بغصة قوية ليلتها.. حتى إن أعصابي توترت كثيرا وكنت على وشك النهوض من

الفراش لأواجهها بكلامها الوقح عني.. لكني أدركت في قرارة نفسي أن الفتاة محقة.. ولا يمكن لأحد أن يلومها كوني تطفلت على حياتها فجأة.. فأخذت أنفاسا طويلة عميقة آملة أن أهدأ وأن يزورني النعاس.. على أن أفكر بالأمر غدا وأفعل شيئا ما أسترد به كرامتي.. إلى أن غبت أخيرا في العالم الآخر.

في اليوم التالي.. وأثناء زيارة ابنة شقيقي لإحدى صديقاتها.. قمت بالاتصال بشقيقتي الكبرى لأفضفض لها وأخبرها بالضيق الذي بت أشعر به مؤخرا في بيت شقيقي رغم أنه -والحق يقال- لم يقصر أبدا في حقي وحاول أن يوفر لي كل سبل الراحة.. فحاولت المسكينة تهدئتي.. وراحت تتحدث عن أنني في بيت شقيقي في نهاية الأمر حتى وإن اعترضت ابنته.. وأن (الظفر لا يخرج أبدا من اللحم).. ومن تلك الأمثلة السخيفة التي نكررها دوما دون أن ننتبه إلى أن الظفر يخرج كثيرا من اللحم في التعذيب الجسدي.. وأحيانا المعنوي.

المشكلة أن شقيقتي لم تكتفِ بهذا الكلام.. بل تصرفت بعد إنهاء المكالمة بطريقة ساذجة للغاية دون علمي.. إذ اتصلت بشقيقي مساء اليوم نفسه لتخبره بأمر اتصالي بها وما فعَلَتْه ابنته معي!!!.. ليأتي الأخير غاضبا ويعنف ابنته أمامي على سوء معاملتها لي ويخبرها أنني اشتكيت لعمّتها و.. إلخ!!!.. نعم.. لقد فضحتني شقيقتي كما ترون.. وتصرف شقيقي بدوره بعصبية ودون تفكير.. والنتيجة كانت كارثية بالطبع على علاقتي بابنته.. فساءت معاملتها لي كثيرا في الأيام القليلة التالية.. وباتت ترى أي خطأ صغير أرتكبه وكأنه كارثة.. وراحت تفتعل مشاكل لا داعي لها أصلا.

أما والدتها فبدأت تقف إلى جانبها بعد أن كانت تحاول في البداية أن تحل الأمور بيننا بهدوء.. إلى أن علا صوتها ذات مرة في أحد الشجارات وبدأت تصرخ علي.. لأرد عليها بصراخ بالمقابل وشقيقي تائه حائر لا يعرف كيف يوفق بيننا رغم أنه يؤكد ويقسم بحرارة أنني لا أسبب لهم أي ضيق.. وأنه مستعد للتحدث مع ابنته وزوجته مرة أخرى وأخرى وأن يفرض عليهما احترامي وحسن معاملتي.. لكني رفضت بحزم.. فما الفائدة من الاحترام الظاهري وابنته وزوجته تكرهان وجودي في البيت بعد أقل من شهرين فحسب من إقامتي فيه؟!.

لذا تحدثت مع شقيقي صراحة أن الأمور لا يمكن أن تستمر بهذه الصورة.. وإنني واثقة أن ما يحدث مجرد سوء تفاهم معتاد يحصل دوما بين الناس الطيبين.. لكن من المؤكد أيضا أن المشاكل ستشتعل بيننا إن عاجلا أم آجلا مهما كانت النوايا طيبة.. فمن حق ابنته أن تكون لها غرفتها الخاصة في نهاية الأمر.. لذا عليه وعلى أشقائي جميعا أن يجدوا لي غرفة في بيت أحدهم -وإن كانت بصورة مؤقتة- على أن أستأجر شقة حال حصولي على الوظيفة.. إنه الحل الأنسب كما ترون ولتذهب العادات والتقاليد إلى الجحيم.. فأنا لم أعد طفلة صغيرة.. وقد تغير الزمن الآن ولا مانع أن تقيم فتاة وحدها إن كانت تعيش حياة محترمة.. لكن:

-لن أسمح لك أبدا بالسكن وحيدة في شقة.. هذا مستحيل!!!.. ما الذي سيقوله الناس عنا؟!!!.

قالها بصرامة واضحة وكأنه لا يريدني إطلاقا أن أفكر بأمر كهذا.. لكنه -وقبل أن أعترض- صمت فجأة وبشكل غريب أثار انتباهي.. ثم لانت ملامحه وهو يزن أمرا ما بعقله كما بدا لي.. طال صمته بعض الوقت حتى كدت أسأله عما دهاه.. إلى أن قال بتردد كبير ما لم يخطر ببالي أبدا:

-لماذا.. لماذا لا تقيمين في بيت جدّنا؟!!!.. إنه لا يزال على قيد الحياة إن كنت لا تعلمين.

بهتّ تماما!!!.. بل وتطلب الأمر بضع دقائق لأستوعب اقتراحه.. يا إلهي.. جدي؟ !!.. لم أكن أعلم أنه لا يزال على قيد الحياة.. لا شك أنه قد تجاوز الثمانين من العمر الآن.. إنني حتى لم أزره

في حياتي ولا أعرف كيف يبدو.. كيف أزور ذلك الرجل غريب الأطوار سيء السمعة الذي تبرأ منه ابنه -أبي رحمه الله- وانقطع عنه إلى يوم وفاته.. شخص يتبرأ من أبيه؟!.. نعم.. هذا ما فعله أبي.. والواقع أننا جميعنا أيضا تبرأنا من جدي ونسينا وجوده في حياتنا.. حتى إن أحدا من أشقائي لم يزره منذ سنوات طويلة.. وبعضنا لم يزره أصلا ولا حتى مرة واحدة!!!.

أكاد أسمع البعض يهز رأسه بأسف ويتحدث عن صلة الرحم!!.. وعن أننا أناس قليلو أصل لنترك جدنا طوال هذه السنوات دون أن نسأل عنه حتى كدنا ننسى وجوده!!.. صدقوني.. لسنا كذلك أبدا.. لكن جدي كان يستحق أن نهجره ونتبرأ منه.. فقصته غريبة للغاية.. لا.. ليست غريبة فحسب.. بل خارقة الغرابة وتثير تساؤلات يقشعر لها البدن وتجعل المرء يخشاه كالموت ذاته!!!.. أقول هذا رغم أنني حفيدته.. تخيلوا ما الذي سيقوله الغريب لو سمع بالقصة؟ !!.. ستعرفون ما أعنيه لاحقا.. فقط استمروا في تتبع الأحداث.

أعادني شقيقي إلى الواقع وهو يتحدث بحماس وقد بدا أن الفكرة قد راقت له كثيرا:

-نعم.. الإقامة في بيته ليست سيئة.. نحن أحفاده والورثة الشرعيون له حتى لو كنا منقطعين عنه طوال حياتنا تقريبا ولم نسأل عنه يوما.. إنه حاليا في أرذل العمر ومصاب بأمراض عديدة من تلك التي تصيب الشيوخ.. وهو طريح الفراش منذ سنوات ولا يعي ما يحدث حوله إطلاقا.. إنه.. إنه جثة حية إن صح التعبير.. كما أنه يقيم وحيدا مع ممرض وخادمة.

قلت باستنكار شديد دون مراعاة لفارق السن بيننا:

- هل جننت؟!.. تطلب مني أن أقيم في بيت لم أدخله أو أزره من قبل؟ !!.. إنني لا أعرف عن جدي سوى اسمه.. فكيف أعيش معه؟!!.

رد متجاهلا حدّتي:

-يا عزيزتي.. إن جدنا الآن بمثابة الميت.. صدقيني.. ولن يشعر بوجودك في بيته.

سألته باستغراب:

-كيف تعرف أخباره؟!.. هل تزوره؟!!.

تنحنح وهو يقول بحرج:

-زرته مرة واحدة منذ حوالي 4 أعوام.. وقد طلبت من الممرض أن يتصل بي إذا حدث شيء.. وهو لم يتصل منذ ذلك الحين.

طبعا (إذا حدث شيء) هي كلمة محترمة استخدمها شقيقي بدلا من (إذا مات)!!!.. لكني قلت بحزم وأنا أهز رأسي رافضة كلامه:

-مهما يكن.. لا أستطيع استيعاب فكرة كهذه.. لقد نسيت أصلا أن لي جدّاً على قيد الحياة.. وأكاد أقسم أنه لم يطرأ ببالي منذ سنوات!!!.. وتأتي أنت بكل بساطة لتطلب مني أن أقيم معه؟ !!.. ماذا عن القصص المخيفة التي سمعناها من أبي رحمه الله؟!.. كيف سأقيم في بيت يحوي تاريخا مخيفا كهذا؟!.. بل إن تاريخ جدي بأكمله عبارة عن فيلم رعب.. سأموت خوفا لو قضيت ليلة واحدة في بيته.. و....

قاطعني مبتسما:

-فقط فكري بالأمر وستجدين أنني على صواب.. بيته هو بيت العائلة في نهاية الأمر.. لا تنسي ذلك.. تذكري أيضا أنه لن يشعر بوجودك.. وحتى لو توفاه الله في أية لحظة.. فستكونين في بيت العائلة إلى أن يأتي النصيب.. ولن تكوني في شقة ستثير إقامتك فيها الأقاويل دون شك رغم ثقتي الكاملة بأخلاقك.. أما عن القصص المخيفة على حد قولك فهي مجرد تاريخ قديم جدا لم يعد يعني شيئا الآن بعد كل هذه السنوات.

بصراحة.. كان محقا في كلامه.. فبعد أكثر من ساعة من الاستنكار والرفض القاطع ومحاولات الإقناع من قبل شقيقي.. وجدت أن دماغي قد بدأ يلين ويتقبل الفكرة.. إن بيت جدي يظل في النهاية بيت العائلة الكبير.. بيت العائلة الخالي الخاوي من أي روح!!!.. أستغرب بحق كيف بقي هذا الرجل على قيد الحياة بعد هذا العمر.. من المؤكد أنه أصبح الآن مستودعا للأمراض وكل المؤشرات تقول إننا سنسمع خبر موته قريبا جدا وفي أية لحظة.. وربما هو لا يزال يجهل أن أبي -ولده الوحيد- قد توفاه الله.. أعتقد أنه يجهل هذا بالفعل.. حسنا.. ربما هي ليست بالفكرة السيئة.. فهو لن يشعر بوجودي في بيته أصلا بعد أن فقد قدرته على التعامل مع العالم الخارجي وأصبح طريح الفراش لا ينهض منه إطلاقا كما علمت للتو.. و.. بعد أن فكرت مرارا وتكرارا لساعات طويلة.. وافقت أخيرا!!!.. وأخبرت شقيقي بهذا بعد يومين تقريبا في أثناء تناول الغداء.. ولم تفتني نظرات الارتياح على ملامحه وملامح ابنته وزوجته.. وربما باقي أفراد أسرته.. نعم.. لقد حاولوا إسعادي في بادئ الأمر.. لكنهم ملوا وجودي مع مرور الأيام ومع تزايد الخلافات.. هذا أمر متوقع للغاية.. إنها طبيعة بشرية لا مفر منها.

قد يتساءل بعضكم.. كيف سأقيم مع جدي وهناك رجل غريب يقيم عنده في البيت وهو الممرض بالطبع؟ !!.. سؤال وجيه.. لكن شقيقي تجاوز هذه النقطة.. ربما لأن الممرض كبير في السن بدوره وفي عمر والدي كما علمت.. وربما لأنني بالنسبة لعائلتي مجرد حمل زائد يرغبون بالتخلص منه بأية وسيلة.. أرى هذا بوضوح من خلال شقيقاتي اللاتي ما زلن يتسابقن لمحاولة العثور على عريس مناسب لي على حد قولهن!!!.. لا أنكر أن هذا آلمني كثيرا.. لكني لم أجرؤ على مصارحتهن بشيء.

كان يوما حافلا بكل تأكيد.. يوم الانتقال إلى بيت جدي.. إذ تكدست حقائبي في سيارتي وسيارة شقيقي قبل أن أودع الجميع وأشكرهم على ضيافتهم وأعانق ابنة شقيقي وزوجته كوني أريد أن أترك المكان بذكرى طيبة.. مع وعود لا تنتهي بأنني سأزورهم باستمرار.. وهي من الوعود التي يعلم كلانا أنها لن تتحقق.. لكن لا بد من قولها على سبيل المجاملة.

لننطلق بعدها إلى بيت جدي في منطقة (الفيحاء).. ذلك البيت الذي نسجت حوله الكثير من القصص والأساطير.. حتى بات وكأنه تلك الجزيرة الإيطالية المرعبة التي يتجنبها الجميع بسبب تاريخها الأسود ([4])!!!.. لكن.. هناك ما هو أهم الآن.. هناك الحاجز الذي يجب كسره.. الحاجز النفسي في بيت لا أنتمي إليه نهائيا.. أفكر بهذا وأنا أتبع سيارة شقيقي كوني لا أعرف الطريق أصلا إلى مكان سكني الجديد.. إلى أن وصلنا أخيرا.. شقيقي يركن سيارته أمام مدخل البيت القديم المتهالك الذي لم أرَ أقدم منه في (الكويت).. لأركن سيارتي بدوري وبشيء من خيبة الأمل والاستغراب!!!.. فهذا البيت يصلح ليكون متحفا!!.. إنه لا يزال يحمل طراز أوائل الستينيات مع أجهزة التكييف القديمة التي تطل من كل جانب منه.. ربما سأرى الفنانة الراحلة (عائشة المرطة) وهي تفتح لنا الباب!!!.. ربما سأرى (عوض الدوخي) في ساحة البيت يدندن بآلة العود!!!.. أثارت تلك الخواطر ابتسامتي رغم الضيق الشديد الذي أصابني بسبب هذا البيت المتهالك الذي

سأعيش فيه لمدة غير معلومة حتى الآن.. غريب حقا أننا كنا دوما نرى أن بيت أبي -رحمه الله- هو بيت العائلة.. لكن الواقع يقول إن هذا البيت هو بيت العائلة الحقيقي.. هل أشعر بالخوف من البقاء فيه كما كنت أظن؟!.. على العكس تماما.. إنه يمنحني شعورا غريبا بالحنين.. لم أتوقع ذلك إطلاقا!!!.. من الغريب أن تفتقد أماكن لم تزرها في حياتك.. وأن تفتقد أوقاتا لم تعشها أصلا!!.. إلا أنني تجاهلت كل هذه المشاعر المتضاربة ونزلت من السيارة بهدوء وتردد واضحين.. على عكس شقيقي الذي بدا طبيعيا للغاية.

ولا أعرف لماذا شعرت وكأن موسيقى الفيلم الشهير (شتر آيلند) (Shutter Island) تدوي بعنف في اللحظة التي دخل فيها النجم العالمي (ليوناردو ديكابريو) مستشفى الطب النفسي المرعب الذي يحتل مساحة واسعة من الجزيرة.. لكني ظللت أذكّر نفسي أنني في بيت جدي في نهاية الأمر وإن كان كل شيء فيه يبدو مسموما.. حتى الهواء نفسه!!!.

هناك ارتداد أمام البيت يحوي حديقة صغيرة متهالكة لم يتبقّ منها شيء سوى بقايا أشجار ميتة اصفرت أوراقها وذبلت حتى أصبحت مجرد أعمدة خشبية.. لقد كنت أقول دوما إنك إذا أحببت حديقة البيت فإنك على الأرجح ستحب أصحاب البيت.. وحديقة هذا البيت شبيهة بالمقبرة.. فكيف سأحبه!!.. شعور متضارب عجيب.. للحظة شعرت بالحنين.. ثم الخوف.. أمشي مع شقيقي متجهين ناحية الباب.. ثم.. يضغط على زر الجرس.. صوت الجرس ينفض الغبار من حوله ويعم أرجاء البيت.. هل هناك صوت له غبار؟ !!.. إذ بدا للحظة وكأن أحدا لم يضغط على هذا الزر منذ زمن.

دقائق طويلة تكرر فيها صوت الجرس قبل أن نسمع وقع أقدام تمشي مسرعة.. ليفتح الباب بهدوء.. وتظهر لنا خادمة كبيرة في السن سمراء البشرة هندية الجنسية ربما.. يبدو أن كل شيء في هذا البيت كبير في السن!!!.. شقيقي يلقي عليها التحية بكلمات مقتضبة ويحاول أن يذكرها بنفسه كونه قد زار جدي منذ بضع سنوات.. تبتسم مجاملة وتومئ برأسها إيجابا بصورة توحي أن هذا جميل لكنها لا تكترث.. المهم أنه أخبرها أننا نريد لقاء جدي.. نظرات التردد واضحة في عينيها.. لكنها أدخلتنا رغم كل شيء وهي تتحدث بلغة عربية لا بأس بها توحي بأنها تعيش في (الكويت) منذ سنوات طويلة.. شقيقي يأمرها أن تساعده في إدخال حقائبي إلى الداخل.. ولكن ليس قبل أن نلقي التحية على جدي على حد قوله.. إنه يتصرف وكأنه في بيته!!!.. نعم.. إنه في الواقع بيته وبيتنا جميعا.. لكني أجد الكثير من الوقاحة أن نغيب عن جدي العمر كله تقريبا.. لنأتي فجأة إلى بيته ونتصرف بصورة طبيعية.

و.. هل من الممكن أن توجد فوضى كهذه؟!.. متى كانت آخر مرة قاموا فيها بتنظيف ساحة البيت الداخلية؟!.. إنها قذرة جدا مليئة بالأتربة!!!.. تجاهلت ذلك ورحت أتبع شقيقي متجهين معا إلى الداخل.. لا.. مستحيل أن أتجاوز عن تلك القذارة هذه المرة!!.. أثاث الصالة القديم الذي تغطيه الأتربة يوحي أن لا أحد يهتم بالنظافة هنا.. ما الذي تفعله الخادمة إذا؟!.. أنا واثقة أن البيت مليء بالحشرات و.. وربما الفئران!!!.. كيف سأعيش في مكان كهذا؟!.. سأفكر بذلك لاحقا.. يجب أن أنفض تلك الأفكار من ذهني الآن استعدادا لذلك اللقاء المهيب.. لقاء جدي!!!.

دخلنا غرفته أخيرا والتي بدت نظيفة نسبيا قياسا بباقي البيت.. غرفة كئيبة قديمة الأثاث تفوح منها رائحة المراهم والأدوية.. ضوء خافت.. منضدة صغيرة تتكدس عليها الأدوية.. جهاز تكييف قديم يبعث في المكان مزيدا من الكآبة بصوته المزعج.. هناك أيضا جهاز تلفزيون قديم نسبيا.. لا

أفهم سبب تلك الرهبة الغريبة التي تسيطر على أجواء المكان.. أنظر إلى جدي بقلب يخفق بعنف في لقائي الأول به.. يا إلهي.. إنه في أسوأ حال ممكن.. مجرد شيخ ملقى على سرير آلي شبيه بأسرّة المستشفيات.. يحدق في الفراغ ويعيش في زمنه وعالمه الخاص كما يبدو.. حتى لتظن للحظة أنه ميت أصلا.. لقد فعل فيه الزمن كل ما يمكن فعله.. ندوب السنوات وتعاريجها تملأ وجهه.. نحول شديد يدل على سوء صحته.. أنبوب دقيق يمر عبر فمه ويتصل من الناحية الأخرى بأسطوانة الأكسجين.. هناك أيضا ذلك الممرض الذي أخبرني عنه شقيقي.. رجل من جنسية عربية ممتلئ الجسد أصلع الرأس يرتدي نظارات سميكة نسبيا.. إنه في أواخر الخمسين من العمر كما بدا لي ويقيم هنا بصورة مستمرة منذ سنوات طويلة كما علمنا.. هذا غريب.. هناك من يؤمن بالحب من أول نظرة.. فهل هناك من يؤمن بالكره من أول نظرة؟!!!.. هذا ما شعرت به تجاه الممرض.. وربما كان هذا شعوره تجاهنا أيضا.. إنه ينظر إلينا بتوجس.. لا شك أنه يرانا قليلي أصل كوننا ابتعدنا عن جدي طوال حياتنا تقريبا ولم نزره يوما.. لا أظن أنه يعرف السر وراء ذلك.. فلا يمكن أن يكون جدي قد فضح نفسه واعترف لأحد بما كان يفعله في شبابه.. أما أفراد الأسرة فنحن لم نذكر سيرته لأحد أصلا.. هذا سر عائلي مات تقريبا ولم يعد يتذكره الناس.

عموما.. ألقيت على الممرض تحية عابرة.. واتجهت ناحية جدي الذي أقابله للمرة الأولى في حياتي.. تلك الأنفاس الضعيفة تخبرك أنه لا يزال متمسكا بالحياة.. أقبل جبينه بشيء من الرهبة ودون أدنى عاطفة سوى الشفقة رغم ماضيه الأسود.. شقيقي أيضا يقبل جبينه على مضض.. لقد قرأت ذات مرة أن داخل كل رجل عجوز طفلا صغيرا يتساءل ماذا حدث!!!.. فآخر ما يشيخ في الإنسان قلبه.. لكن يبدو أن جدي قد شاخ في كل ذرة من جسده.. وحتى روحه نفسها!!!.

نجلس جميعا على الأرض لنتبادل مع الممرض أطراف الحديث لبضع دقائق حول صحة جدي وأمور أخرى جانبية.. قبل أن يقول شقيقي بلهجة آمرة:

-شقيقتي (صغيرة) كانت تدرس في الخارج.. وقد عادت منذ مدة قصيرة.. ستقيم هنا مع جدها.. في بيت العائلة!!.

بيت العائلة؟!.. إنه كذلك من الناحية الرسمية.. لكني أجد التعبير مضحكا إلى حد ما.. أي بيت عائلة هذا الذي لم أدخله في حياتي؟!.. الممرض يرحب بي بحماس مصطنع.. لكن عدم الرضا واضح على ملامحه.. لسان حاله يقول:

-ما الذي تعرفونه عن هذا العجوز المسكين أيها الأوغاد لتأتوا وتفرضوا علينا إقامة تلك اللعينة بيننا؟!.

أرى هذا الكلام في ملامحه وإن لم يقله.. لا ألومك يا عزيزي.. فأنت لا تعرف ما نعرفه عن جدي.. المهم أن شقيقي نظر إلي نظرة مشجعة من طراز (ستكونين -بخير -يا -عزيزتي).. فنظرت إليه بدوري نظرة مترددة من طراز (سأكون -بخير -هنا).. ابتسم مع هذا الحوار الصامت الذي نطقت به أعيننا.. ثم تنحنح لينهض من مكانه وهو يلقي علينا جميعا التحية.. وذهب ليقبل جبين جدي مرة أخرى بمشهد تمثيلي وهو يلقي على مسامعي ببعض كلمات المجاملة وأنه سيفتقد وجودي في بيته.. وأن علي التواجد دوما في تجمعات العائلة التي لم تعد تتم كثيرا أصلا كما كان الحال قبل وفاة أبي.. ولم ينس أيضا أن يخبرني أنه سيساعد الخادمة في نقل الحقائب إلى الطابق الثاني حيث غرفتي التي لم أرها أو أدخلها حتى الآن.. ثم أنهى كلامه بابتسامة وهو يقول إنني سأجد مفاجأة سارة في غرفتي الجديدة!!!.. لذا قبلت جبينه وشكرته كثيرا على كل ما فعله من أجلي.. ليتركني

أخيرا في بيتي الجديد.. القديم!!!.

جلست في الغرفة قليلا وقد ساد المكان صمت خانق سوى من صوت شقيقي في الخارج وهو يحمل حقائبي مع الخادمة ويصدر إليها بعض الأوامر بصوت مرتفع.. أنظر إلى الممرض وهو يشاهد التلفزيون وكأنني غير موجودة.. ثم ألتفت إلى جدي الذي فارق العالم لكنه لم يفارق الحياة بعد.. فيه شيء غير إنساني لا أفهمه يبعث القشعريرة في النفس!!!.

نظرة سريعة أخرى على جدران الغرفة وأثاثها القديم المتهالك مع رائحته التي لا يخطئها الأنف.. حقا إن عائلتنا غريبة.. الجميع يكرهون هذا البيت.. الجميع يكرهون جدي.. حتى أبي نفسه رحمه الله.. هل أكرهه أنا أيضا؟ !!.. لا أعرف لماذا نهضت من مكاني لأقبل جبينه مرة أخرى بشيء من تأنيب الضمير.. شاعرة أنه مهما فعل في حياته فيجب أن نغفر له وأن نحترم ما وصل إليه وهو في هذه السن.. هشا ضعيفا يحتاج رعاية مستمرة كالطفل الرضيع.. لماذا يكرهه الجميع في أعماقهم ويتجنبونه؟!.. لماذا انقطعنا عنه طوال حياتنا تقريبا؟!.. لا شك أنكم تطرحون هذا السؤال وتنتظرون الإجابة.. في الواقع أن لهذا قصة طويلة.. قصة طويلة للغاية تبدأ من عام 1938!!!.

حسنا.. عام 1938.. وفي (كويت) ما قبل النفط.. حين كان تعدادها السكاني يقل عن المائة ألف نسمة تقريبا.. ملامح الفقر تبدو واضحة على كل شيء.. لدرجة أن كلمة (قمامة) لم تكن موجودة أصلا في قاموس أهل البلد.. فلا يوجد أي فائض من الأطعمة من شدة الفقر.. حتى حين يتساقط فتات الخبز تجد من يرفعه من الأرض ويقبله.. ولا أعرف لماذا تظهر علامات الفقر على الأطفال أولا قبل الكبار كما هو الحال دوما مع المجتمعات الفقيرة.. إذ تجدهم حفاة يرتدون ثيابا بالية تمزقت مرات كثيرة وأعيد ترقيعها.. لكنهم رغم ذلك يلعبون في الشوارع بسعادة دون أي قلق من الغد وما قد يحمله لهم.. بل إن بعضهم صقلته الحياة مبكرا بعد أن ركب البحر.. ومنهم أيضا من يصطحبه والده باستمرار إلى محله أو حرفته للتعلم والتدريب.

أما الكبار فنجد النساء يذهبن كل يوم لشراء احتياجات البيت من السوق.. والخيارات محدودة جدا بالطبع.. وهناك من يذهبن للبحر لغسيل الثياب.. في حين نجد الرجال يذهبون شهورا للغوص باحثين عن اللؤلؤ.. ليعود كل منهم بحفنة من الروبيات ([5]) بالكاد تكفيه وتكفي أسرته.. وهناك من كان يعمل خبازا أو راعيا للأغنام.. إلخ من تلك المهن التي يمتهنها كل من يعيش في مجتمع بدائي.

حقا كانت حياة متعبة مرهقة للغاية.. لكن الجميع يستذكرها مبتسما.. ربما بسبب الدفء الإنساني الذي كان يخيم على المجتمع.. ربما بسبب ليالي الشتاء حين يجتمع أفراد العائلة حول موقد الفحم الذي يطلقون عليه اسم (الدوّة) ويجلسون على شكل حلقة سمر.. حيث يستمعون إلى قصص الجن والأشباح ويستمتعون بالدفء دون أن يتصور أحد منهم أن حال البلد سينقلب رأسا على عقب في غضون سنوات قليلة ليصبح أحد أغنى بلدان العالم.. لتتغير تركيبته السكانية بالكامل وتزداد مشاكله بالتبعية.

لن أتحدث أكثر عن (الكويت) في تلك الفترة وعن طريقة المعيشة.. بل سأتحدث عن الأهم.. عن ذلك الصبي المنبوذ الذي لا يتجاوز التاسعة من العمر.. ويعيش حياة غريبة غامضة هادئة جدا تختلف عن معظم الأطفال في مثل سنه والذين كانوا يقضون جل وقتهم في اللعب.. نعم.. إنه جدي في طفولته!!!.

الغريب أنه كان كالكهنة البوذيين رغم صغر سنه.. يقضي جل وقته بالتفكير والتأمل وقراءة ما يقع

تحت يديه من كتب بعد أن تعلم القراءة والكتابة في المدرسة.. نقول مدرسة مجازا طبعا.. فهي لم تكن تتجاوز تعليم الكتاتيب البدائي حين كان يجتمع بهم رجل الدين أو ما يطلق عليه اسم (المُلاّ).. ليعلمهم الأبجديات وآيات القرآن الكريم وبعض المعلومات العامة البسيطة.

كيف كان الصبي يحصل على الكتب؟!.. من مكتبة (الرويّـح).. إنها بالمناسبة أول مكتبة كويتية ([6]).. فرغم فقر عائلته كحال معظم العائلات آنذاك.. إلا أنه كان يفعل المستحيل لتوفير كل ما يستطيع لشراء كتاب جديد.. حتى لو وصل به الأمر إلى تسول الكتب من صاحب المكتبة الذي كان يشفق عليه كثيرا ويمنحه بعض الكتب المجانية بين الحين والآخر.. مستغربا كيف لصبي بمثل سنه أن يهتم إلى هذا الحد بالقراءة!!!.

لقد بدا الصبي للجميع وكأنه يعيش لسببين.. لأنه وُلِد.. ولأنه لم يمت بعد!!!.. أي أنه كان يعيش سبهللا.. و(سبهللا) بالمناسبة لفظة فصحى لا غبار عليها وتعني (لا لدنيا ولا لآخرة).. إذ كان صورة مجسدة لشخصية (عبيط القرية) الذي نراه في الأفلام والقصص المصرية القديمة.. فكانت ملامحه توحي ببلاهة غريبة تلفت انتباه الجميع بسبب شروده المستمر.. إنه صامت دوما.. لا يتحدث إلا ليجيب على سؤال.. كما لوحظ أنه ينظر للنجوم بانبهار غريب لا يفهمه أحد!!!.

لقد تعرض هذا المسكين لكثير من الأذى من قبل أقرانه.. كالسخرية والمزاح الثقيل أحيانا.. والضرب المبرح أحيانا أخرى.. حتى قرر الابتعاد عن أذى الناس ليصبح مثالا مجسدا للعزلة.. بل وكانت تمر عليه أيام دون أن يتبادل كلمة واحدة مع أحد.. وكأن لسان حاله يقول: ((يصدرون علي الأحكام رغم أنهم لا يعرفونني.. لهذا أفضل أن أكون وحيدا!!!)).. ويبدو أن الصبية قد ملوّا وجوده وعدم استجابته لاستفزازاتهم المتواصلة.. فتركوه وشأنه مع مرور الأيام.

لقد كان الصبي يعيش مع والدته ووالده الذي كان يغيب شهورا في البحر باحثا عن اللؤلؤ.. فيعود منهكا مرهقا بسبب صحته السيئة أصلا والتي لم تكن تسمح له بالسفر على مركب صغير يتكدس فيه الغواصون في بيئة قاسية لا تحوي أدنى درجات الصحة.. لكنا نتحدث عن زمن لا يوجد فيه للتدليل كلمة.. ستموت جوعا وعطشا إذا كنت لا تعمل.. هكذا بكل بساطة!!!.

استمرت حياة الصبي على هذا المنوال إلى أن تبدل كل شيء في عام 1942.. ومع انتقاله لمرحلة المراهقة حين ازداد صوته خشونة ونبت له شارب خفيف.. إذ حدثت الصدمة بوفاة والدته بسبب مرض ما.. وما أكثر الأمراض التي فتكت بالناس في ذلك الزمن الذي كان فيه الطب لا يزيد عن الكي واستنشاق الهواء النقي.. ليظل وحيدا في البيت في ظل غياب والده المستمر برحلات الغوص.. وقد رأف الجيران كثيرا بظروف الصبي.. فكانوا يطمئنون والده دوماً أنهم سيهتمون لأمر ولده وليس عليه أن يقلق من شيء.

وهذا ما حدث بالفعل.. قبل أن ينتبه الجيران مع مرور الوقت أن الصبي يسهر الليل بطوله دون سبب واضح.. كيف علموا بذلك؟!!!.. بسبب ضوء ذلك السراج الخافت المترقرق الذي يظهر من شباك البيت.. إنها علامة شهيرة للمفكرين منذ القرون الوسطى قبل اكتشاف الكهرباء.. فالبيت الذي به سراج مضيء في أوقات متأخرة كهذه هو لا شك بيت تحت سقفه عالم.. أو.. ساحر!!!.

لذا فقد انتشرت الشائعات أن الصبي يمارس السحر!!!.. إنها أسهل الشائعات وأكثرها قبولا في ذلك الزمن تجاه مراهق يعيش حياة تختلف كليا عن أقرانه.. خاصة أن أحدا لم ير هذا الصبي يخرج يوما لأداء الصلاة في المسجد.. وهو أمر غريب للغاية آنذاك بالفعل رغم نصائحهم

المستمرة له والتي كان يستمع إليها مومئا برأسه دون رد!!!.. وهذا ما جعل الأقاويل تكثر وتتفاقم وتؤكد أن هذا الوغد ليس سوى ساحر منحل الأخلاق أو مصاب بمس من الجن في أفضل الأحوال ويجب أن يترك وشأنه.

ورغم تلك الأقاويل.. إلا أن بعض أقاربه وجيرانه رأفوا بحاله حين أصبح يتيم الأبوين وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة.. وذلك بعد وفاة والده في واحدة من رحلات الغوص وهي من الأمور الشائعة آنذاك مع الأسف.. فراح الجميع يسألون عنه ويرسلون له كل احتياجاته الأساسية.. قبل أن يتوقفوا عن ذلك مع مرور الأيام كون الصبي في سن تسمح له بالعمل وكسب قوت يومه بنفسه.. لذا راح يبحث عن عمل بعد أسابيع قليلة من وفاة والده.. فعثر على مهنة غريبة بعض الشيء.. أتحدث عن تكفين الموتى ودفنهم!!!.. نعم.. كانت هذه المهنة الوحيدة تقريبا المتاحة له.. فهو لم يتعلم في طفولته أي حرفة.. ولم يأخذه أبوه معه منذ الصغر ليتعلم منه أصول الغوص والبحث عن اللؤلؤ.. كان هذا تقصيرا فادحا من الأب.

من المؤكد أن الصبي شعر بالرعب في البداية وهو يرى الجثث.. لكنه اعتاد على الأمر مع مرور الأيام وأصبح يقوم بعمله بطريقة آلية وبذهن غائب عن الواقع.. مع حزن مستمر لم يفهم أحد سببه.. ولا ننسى أنه لم يكسب أي صداقات في عمله هذا ولا حتى شفقة من أحد.. فجميع من كانوا يعملون في المقابر يتجنبون الحديث معه بسبب الأقاويل التي انتشرت عنه.. خاصة بعد أن شوهد وهو يحمل تلك الصناديق.. نعم.. كان الصبي يأتي بصناديق كبيرة الحجم نسبيا إلى البيت وبأوقات متأخرة للغاية تخلو فيها الطرقات تماما.. ما الذي كانت تحويه؟!.. قد تظنون أنها تحوي جثثا كان يقوم بتقطيعها حتى تحتويها الصناديق!!!.. لا يوجد مزاح في الأمر.. فهذا ما ظنه الجميع بالفعل.. بل ووصل خيال البعض إلى القول إن الفتى يسرق جثث الموتى ليأتي بها إلى بيته ويمارس عليها نوعا من السحر يطلق عليه اسم (نكرومانسي) كما قال أحد المواطنين الذين سافروا كثيرا إلى (الهند) وكانوا على قدر لا بأس به من الثقافة.. وهذا النوع من السحر -بالمناسبة- أحد أبشع أنواع السحر وأكثرها تقززا ([7]).. حتى إن أحد المتدينين المتحمسين تحدث عن تطبيق الحد الشرعي عليه وقتله إن كانت تلك الشائعات صحيحة!!!.

وقد قام البعض بإبلاغ مديرية الأمن -كما كان يطلق عليها- بالأمر.. فذهب رجال الشرطة إلى المقبرة ليتأكدوا إن كانت هناك قبور قد تم نبشها كما يشاع.. لكن.. كل شيء كان يبدو طبيعيا.. القبور صامتة ساكنة تتحدى الزمن كما هو الحال دوما.. ولا يوجد ما يوحي أن أحدهم قد قام بنبشها.. فنسي الجميع الأمر مع مرور الأيام وتركوا الصبي لحاله.

استمرت حياة الصبي على هذا المنوال بضع سنين رغم التبدل السريع في المجتمع والذي بدأت ملامحه تظهر في أواخر الأربعينيات وفترة الخمسينيات التي تعتبر فترة انتقالية من الحياة القديمة التي عاشتها (الكويت) إلى الحياة المتطورة بتدفق النفط.. ولا يعلم أحد كيف عاش ذلك الصبي -الذي أصبح شابا في العشرين- وماذا كان يفعل مع انشغال الجميع في النهضة العمرانية التي شهدها البلد.. فتلك الفترة تعتبر مجهولة تماما في حياته.. لعل أبرز ما حدث له زواجه عام 1947 من فتاة يتيمة كانت تقيم مع عائلة ما وتعمل لديهم خادمة.. أما كيفية لقائه بها فلا يزال الأمر مجهولا أيضا.. بل ولا أعلم كيف تمكن من أن يأتي بشاهدين كما هو المفترض ومن ثم إقناع مأذون أن يتمم له إجراءات الزواج.. المهم أن إجراءات الزواج قد تمت.. وتزوجا!!!.

لم تنتهِ القصة عند هذا الحد.. فقد زادت عزلة الشاب مع زوجته ولم يتواصلا مع جيرانهما إطلاقا.. حتى مع إنجابه أبي عام 1948.. بل وحتى حين انتقل مع أسرته الصغيرة هذه إلى بيتهم

الجديد في منطقة (الفيحاء) في أواخر الخمسينيات.. وهو بالمناسبة نفس البيت الذي أقيم فيه الآن!!!!.. حيث كبر أبي منعزلا بدوره إلى حد ما كونه دون أقارب يتواصل معهم.. لكن طفولته عموما كانت هادئة تشابهت أيامها كثيرا.. إذ لم تكن تتجاوز الذهاب إلى (المدرسة المباركية) ([8]) ثم العودة والدراسة.. أو قضاء بعض الوقت مع الأصدقاء وزملاء الدراسة.. فقد كانت حياة أبي تتجه لأن تصبح طبيعية للغاية رغم إهمال جدي التام له ولجدتي وانعزاله المستمر عنهما.. إذ كان جدي يقضي معظم الوقت في غرفته ولا يسمح لأحد بالدخول إليه.

كان يقرأ.. ويقرأ دون توقف.. مع الإهمال التام لبيته.. إلى أن اختفت جدتي فجأة!!!!.. نعم.. هذا أحد الألغاز المتعلقة بعائلتي.. لقد اختفت جدتي لأسباب غير واضحة عام 1958 دون سابق إنذار!!!.. بالطبع لم يبلغ أحد عن اختفائها كونها يتيمة ولا يوجد من يهتم لأمرها أو يعلم بغيابها أصلا.. فجدي التزم الصمت.. وأبي كان صغيرا في السن لم يكن ليجرؤ على الذهاب إلى الشرطة للإبلاغ عن ذلك.. نحن نتحدث عن جيل لم يعرف القصص والأفلام البوليسية.. فكلمة (شرطة) كانت أسطورية مخيفة جدا للأطفال آنذاك.. وقد ظل أبي يطرح تساؤلاته باستمرار حول اختفاء جدتي.. لكن جدي كان يردد:

-هي التي اختارت الرحيل.. هي التي اختارت أن تتركنا.

لقد علمت من أبي أنه كان يكره جدي كثيرا ولأسباب كثيرة.. فقد حرمه من حياة طبيعية كان يفترض أن يحياها بسبب غموضه المستمر وتواجده وحيدا دوما بين الكتب التي لم يعرف أحد كنهها.. وغرفته التي لم يكن يسمح لأحد بدخولها.. وكونه شعر أن جدي مسؤول بشكل أو بآخر عن اختفاء جدتي الغامض.. والواقع أن أبي نفسه ظن أن جدي رجل مشعوذ يمارس السحر.. فكل ما كان يفعله يؤكد ذلك.. خاصة أنه كان يتحدث أحيانا بلغات غريبة غير مفهومة!!!.. ليس هذا كل شيء.. بل ويرتكب جرائم قتل أيضا!!!.

نعم.. لقد أكد لنا أبي مرارا أنه رأى جدي يرتكب جرائم قتل في البيت!!!.. حدث ذلك في أحد أيام عام 1962.. حين استيقظ أبي في وقت متأخر من الليل وخرج من غرفته متجها إلى الحمام.. ورغم سوء الإضاءة.. إلا أنه تمكن من رؤية جدي في الطابق الأرضي وهو يتحدث مع صبي في سن المراهقة بهمس خافت للغاية يستحيل سماعه.. ليستل فجأة خنجرا ويطعن الصبي أمام نظراته المصدومة.. إلى أن فارت منه الدماء وخر قتيلا!!!.. ليأخذ جثة الصبي إلى غرفته الغامضة ذاتها.. و.. لكم أن تتخيلوا حالة الرعب التي عاشها أبي وهو يرى شيئا كهذا وعمره لم يتجاوز الرابعة عشر آنذاك!!!.. وعموما فقد كانت هذه أولى الجرائم التي رآها وليست آخرها.. إذ قام بعدها جدي بارتكاب جرائم قتل أخرى وأخرى في الأيام التالية.. والقاسم المشترك بين كل ضحاياه أنهم من المراهقين!!!.. حتى بات أبي يخشاه كالجحيم ذاته.. ولم يجرؤ أبدا على مواجهته بما يراه.. أو أن يعرف على الأقل ماذا كان يفعل جدي في الجثث التي يأخذها معه إلى غرفته.. هل كان يمارس عليها (النكرومانسي) كما أشيع عنه؟!!!.. لا نعلم.

المهم أنه لم يحتمل هذا الوضع بعد أن ترسخت في ذهنه حقيقة واضحة.. وهي أن جدي قد قتل جدتي أيضا.. هذا هو التفسير الوحيد لاختفائها.. فمن يعِش حياة كهذه ويرتكب جرائم قتل في بيته وبدم بارد.. لن يمنعه شيء عن قتل زوجته.. ربما لهذا كان أبي دوما -رحمه الله- ناقما على جدي ومرعوبا منه بنفس الوقت.. ففعل ما يمكن أن يفعله أي ابن لديه أبا كهذا!!!.. هرب من البيت إلى غير عودة رغم عثور جدي على مكانه لاحقا ومحاولات إقناعه التي وصلت إلى حد التوسل أحيانا.. فما رآه أبي كان كافيا ليكره جدي إلى الأبد.

ويبدو أن هروبه من البيت كان بمثابة فأل خير بالنسبة له.. فقد تمكن من الالتحاق بسكن الثانوية وأكمل دراسته.. حيث مكنه هذا من أن يحيا حياة مستقرة طبيعية كان يتمناها دوما.. خاصة حين تزوج من أمي بمعجزة بعد أن رفضه أهلها في بادئ الأمر بسبب سمعة جدي.. لكنهم وافقوا أخيرا على زواجهما بعد شهور من محاولات الإقناع كون أبي قد أحب أمي كثيرا وشعر أنها الزوجة المناسبة له.. فحصل ما أراد.. و.. تزوجا.. وشيئا فشيئا انصهرا في المجتمع وعاشا بعد ذلك حياة طبيعية مع مرور السنوات ونسي الناس ماضي جدي مع عزلته المستمرة.. ومع التمدد العمراني والتحول الاجتماعي الذي غير معالم (الكويت) جذريا.

لقد كون أبي عائلة كبيرة قوامها 3 أولاد و 5 بنات.. أصغرهم أنا وبفارق سنوات طويلة كما أخبرتكم.. فعاملني أشقائي وكأنني ابنتهم.. إلى أن تزوج كل منهم وانغمس في حياته الأسرية.. كل هذا ونحن بعيدون تماما عن جدي الذي أصيب بأمراض الشيخوخة المعتادة وأصبح طريح الفراش منذ عام 2000 تقريبا حين كان في أوائل السبعينات من العمر.

كما علمت من أشقائي أنهم ضغطوا على أبي كثيرا ليزوروا جدي ويرونه على الأقل ولو لمرة واحدة.. فوافق أبي على مضض وذهب معهم لزيارته.. ليجدوه طريح الفراش وفي بدايات إصابته بأعراض المرض.. وقد لاحظ أشقائي أن عاطفة أبي لم تتحرك إطلاقا حين رأى والده لأول مرة منذ سنوات طويلة.. إذ كان يخشاه كثيرا في الواقع وينتظر لحظة الخروج بفارغ الصبر كما بدا لهم.. وربما لا يجب أن نلوم أبي على ذلك.. فكيف يكون بارّا بقاتل يعيش كالشياطين والسحرة؟ !!.. كيف يكون بارّا بأبيه وكل الدلائل تقول إنه ارتكب جرائم قتل عديدة.. بل وقتل زوجته أيضا.. كان واضحا أن هناك عقدة ترسخت في أعماق أبي.. عقدة لن يمحوها الزمن أبدا.. لذا فشل أشقائي في كسر ذلك الحاجز.. فكانت هذه زيارتهم الوحيدة لجدي.. حيث نسيه الجميع مع مرور الأيام.. ولم نتذكره إلا عندما احتجت مكانا لأقيم فيه!!!.

هذه هي قصة عائلتنا باختصار غير مخل.. قصة طويلة للغاية امتدت سنوات لكنها دارت في ذهني لا شعوريا أثناء جلوسي في الغرفة مع جدي والممرض.. هل أصدق القصة بكل تفاصيلها؟!.. أنا لا أكذّب أبي رحمه الله.. فقد كان نعم الأب.. وهو رجل صالح عُرف بحسن المعشر وأحبه الجميع.. ولا يمكن أن يهجر أباه ويسيء إليه بهذه الطريقة دون أن يكون مقتنعا تماما بما رآه.. لكن.. ربما تكون هناك أمور قد أساء فهمها!!.

فعلى سبيل المثال.. لقد قرأت ذات مرة عن ظاهرة تجعل المرء يتحدث بلغات غريبة غير مفهومة.. ولها في واقع الأمر تفسير علمي ([9]).. أما بخصوص جرائم القتل والسحر والانعزال المستمر والسمعة السيئة فهذا ما لا أستطيع تفسيره.. قد يكون أسهل الاحتمالات تصديق كل ما قاله أبي.. إلا أنني متمسكة بأمل ضئيل للغاية أن يكون مخطئا وأن جدي ليس بهذا السوء الذي نتخيله.

نفضت تلك التفاصيل من رأسي وقد شعرت مرة أخرى أن قدومي إلى هنا ربما ليس أفضل الحلول.. لكن لا توجد حلول أصلا سوى هذا.. قد يقترح أحدكم حلا آخر.. الزواج مثلا!!.. وهو حل غير منطقي.. فأنا فتاة ناضجة ولا يمكن أن أفكر بالزواج فقط لكي أجد مكانا أقيم فيه باطمئنان.. لقد كان الزواج خارج نطاق تفكيري طوال فترة دراستي.. ولا يزال كذلك.. أعترف أنني عشت قصة حب مع طالب كويتي مبتعث.. لكن التجربة فشلت وانكسر قلبي بسبب فتاة شقراء سلبت لبه وأنسته كل ما بيننا.. باختصار.. سأفكر بالزواج متى ما حان الوقت المناسب.. متى سيكون هذا الوقت المناسب؟!.. لا أعلم.

المهم أنني يجب أن أتأقلم على الحياة في هذا البيت.. ولنرَ ما يمكنني فعله بعد حصولي على وظيفة.. أفكر بهذا وأنا أنهض من مكاني وألقي تحية باردة على الممرض الذي رد علي بكلمات لم أعرها انتباها.. لأخرج من الغرفة محاولة أن أستكشف البيت.. أقف وسط الصالة وأنظر إلى أثاثها البسيط المتهالك.. وأرى ذلك التلفزيون القديم الذي لا أظن أنه يعمل.. ثم.. أمشي في كل أنحاء البيت تقريبا وأدخل غرف الدور الأرضي واحدة تلو الأخرى.. أثاث الغرف متهالك بدوره.. وبعض الغرف بلا أثاث أصلا.. إنه بيت كبير نسبيا.. مثالي في هدوئه وعزلته رغم قذارته وانتشار الحشرات فيه لعدم وجود من يحاسب الخادمة أصلا على نظافة المكان.. لذا فقد شعرت أن هناك مهمة تنظيف ضخمة تنتظرني.

صعدت بعدها محاولة استكشاف الطابق الثاني والعثور على غرفتي.. جميع الغرف خالية تقريبا من الأثاث.. الحمامات قذرة جدا مليئة بالصراصير.. لا أخشى الصراصير كثيرا على عكس الكثيرات رغم اشمئزازي منها بطبيعة الحال.. أصل أخيرا إلى تلك الغرفة التي اختارها شقيقي لي وطلب من الخادمة تنظيفها قبل انتقالي إلى هنا.. لقد علمت الآن ما هي المفاجأة التي أخبرني عنها شقيقي منذ قليل.. فقد فرش الغرفة بسجادة جديدة.. واشترى لها أثاثا فاخرا مع جهاز تلفزيون وجهاز استقبال حديث أوصله في القرص اللاقط (الستالايت).. يبدو أنها طريقته في الاعتذار لما حدث في بيته.. لقد فعل كل شيء سوى طلاء الغرفة.. يبدو أنه لم يجد الوقت ليفعل ذلك.. فلا يزال طلاؤها قديما للغاية تشققت الكثير من أطرافه.. ربما سأقوم بهذه المهمة لاحقا.

تنهدت بعمق وقد ارتفعت معنوياتي بعض الشيء بعد هذه المفاجأة الصغيرة.. لأقول بصوت هامس وبحماس الشباب:

-سأصنع من هذا البيت جنّتي الجديدة!!!.

ثم أخرجت حاجاتي من الحقائب مع شعور لا بأس به بالتفاؤل ووضعت كل شيء في مكانه.. وذهبت إلى الحمام المتهالك لأغتسل وأنا أتجنب الصراصير الموجودة في كل مكان.. قبل أن أعود إلى غرفتي لاستبدال ثيابي وأبدأ بالتفكير في حياتي الجديدة في هذا البيت.. لن تكون الأمور سيئة.. إنني أمتلك حريتي كاملة هنا.. كل ما علي فعله هو تنظيف البيت أولا وسأفعل ذلك صباح الغد.. ثم سأستمتع بوقتي بعد ذلك.

قادتني أفكاري هذه إلى الشعور بالاطمئنان.. فوضعت سماعات الهاتف في أذني ومعنوياتي مرتفعة للغاية.. لأغرق مع الموسيقي وأبدأ في التواصل مع أصدقائي في (الولايات المتحدة الأمريكية) وفي (الكويت) عبر وسائل التواصل الاجتماعي المعتادة.. ويبدو أن الموسيقى تأخذنا دوما إلى حيث تعجز الكلمات.. إذ لم أشعر إلا والدنيا تدور من حولي لأضع الهاتف والسماعات جانبا وأذوب في عالم الأحلام.

في اليوم التالي.. استيقظت بتثاقل.. شاعرة أنني صرت كسولة كالخنازير.. رائحة النوم تفوح مني بقوة.. أنظر إلى الساعة لأجدها تجاوزت الحادية عشرة صباحا.. لا يمكن أن تشعر بالإجازة إلا إذا أفسدت نظام نومك كما يبدو!!!.. ظللت في فراشي فترة من الزمن.. قبل أن أنهض أخيرا وأتجه إلى الحمام القذر.. لن يكون قذرا بعد اليوم.. أغتسل سريعا وأتجه بعدها إلى المطبخ.. ألقي تحية ودود على الخادمة وأخبرها أنني سأساعدها إذا ما احتاجت شيئا.. لقد عشت في الغرب وتعلمت احترام الناس مهما كان مستواهم الاجتماعي.. توجهت بعدها إلى غرفة جدي لأقبل جبينه وهو مستيقظ ينظر إلى العدم ولا يشعر بشيء كما كان حاله أمس وكما سيكون حاله إلى يوم وفاته على الأرجح..

فمن اللائق أن أدخل غرفته كل يوم وأسأل عنه وأتابع أحواله كوني أعيش في بيته.. ولم تفتني نظرات الممرض الذي بدا مستنكرا لمحاولتي السخيفة في التصرف كحفيدة بارة بجدها بعد غيابنا جميعا عنه كل هذه السنوات.

خرجت من الغرفة وقد عقدت العزم على البدء فورا بتنظيف البيت بأكمله وقلبه رأسا على عقب.. فاتصلت بإحدى شركات التنظيف وطلبت منهم المجيء فورا.. ويبدو أنهم كانوا بلا عمل.. إذ لم يتأخروا وجاؤوا بعد أقل من ساعة.. لتبدأ عملية تنظيف ضخمة ابتدأت من ساحة البيت الداخلية وامتدت إلى كل ركن فيه.. ولم يفتني الضيق الذي لمحته على وجه الممرض والخادمة كونهما اعتادا على وضع محدد والآن جاء من ينفض المكان بأكمله ويغير كل شيء في البيت.

كنت أتابع عمال شركة التنظيف وقد تحول المكان إلى شعلة من الحركة التي لم تهدأ على مدى 6 ساعات تقريبا.. وكأنهم ينفضون عن البيت سنوات من الكآبة والهدوء.. أنظر مبهورة إلى أطنان الغبار التي خرجت.. وإلى بيوت العناكب التي تدمرت.. أكره كثيرا كيف تبقى العناكب في زوايا البيت بصمت وكأنها تدفع الإيجار!!!.. ولا ننسى فتح كل المجارير ورشها بمبيدات الصراصير.. وهناك أيضا الفئران المنزلية الصغيرة التي امتلأت بها المصائد!!!.. نعم.. لقد بدت عملية التنظيف ناجحة بحق وأنا أرى أكياس القمامة تتكدس وتتكدس.

لأشعر بعدها أن البيت قد بات نظيفا أخيرا.. وأن رائحة المنظفات والديتول تفوح من كل ركن منه.. و.. هناك قاعدة شهيرة نعرفها جميعا.. فحين تنظف بيتا بمنتهى الفوضى والقذارة.. لا بد وأن تعثر فيه على أشياء كثيرة نسيها الزمن نفسه.. كبعض الأوراق والصحف القديمة والأقلام و.. إلخ.. لكن ما عثرت عليه أنا كان غريبا للغاية.. غريبا إلى درجة لا تصدق!!!.

فأثناء استخدام أحد العمال للمكنسة الكهربائية لتنظيف ما تبقى من الأتربة على السجاد القديم في صالة البيت.. اصطدمت المكنسة بالجدار الموجود تحت درجات السلم المؤدي إلى الطابق الثاني.. أو ما يطلق عليه الأخوة المصريون اسم: (بئر السلم).. لحسن الحظ أن هذا قد حدث أمامي.. فقد خرج صوت فراغ يوحي بوضوح أن هذا الجدار يخفي شيئا خلفه!!!.

صرخت بصوت مرتفع للعامل أن يوقف هدير المكنسة الصاخب لأتأكد مما سمعته.. فامتثل سريعا وهو ينظر إلي مستفهما.. تجاوزته باستغراب متجهة ناحية الجدار لأطرق عليه بإصبعي.. نعم.. هذا واضح.. إنه ليس جدارا حقيقيا!!!.. أحدهم حاول إخفاء ما يوجد خلفه وقام بوضع مادة الجبس على سبيل التمويه.. هذا غريب بالفعل.. تنحنح العامل ونظر إلي وكأنه يستفهم إن كنت أريده أن يتدخل في الأمر.. فأشرت له بلهفة أن يفعل.. من الذي يرى شيئا كهذا ولا يقتله الفضول؟!!.

اقترب العامل ناحية الجدار.. ثم طرق بإصبعه في عدة أماكن.. ليقول مستغربا:

-يوجد باب!!!.. نعم.. يوجد باب خلف هذه البقعة وقد تم ختمه وإخفاؤه بمادة الجبس.

قالها وهو يحاول أن يرسم لي بإصبعه صورة وهمية على الجدار.. أومأت برأسي على عجالة وقد شعرت للحظة أن التوتر بدأ يزحف ليسيطر على كل خلايا جسمي!!!.. فطلبت منه أن يزيل الجدار المصطنع هذا.. بدا مترددا للحظة كونه لا يمتلك العدة اللازمة لإزالته.. لكني كررت طلبي بإصرار بغض النظر عن التلف الذي قد يحدث جراء ذلك.. نظر إلي بحذر.. ثم حسم أمره.. فقام بضرب تلك البقعة بقبضته بقوة.. بوم.. بوم.. بوم.. قبل أن تخترق قبضته الجبس!!!.. ثم راح يزيل أجزاء الجبس بيديه.. ليظهر ما هو متوقع.. نعم.. هناك باب.. باب أُخفي بعناية!!!.

ما إن ظهرت لنا ملامح الباب كاملة.. حتى طلبت من العامل بصوت مرتجف أن يبتعد.. ثم تقدمت بهدوء وجسدي يرتجف لسبب لم أفهمه.. إنها الهيبة دون شك.. من الغريب أن تكون للباب المغلق كل هذه الهيبة!!!.. مهلا.. لا يوجد له مقبض.. كيف سأفتحه؟!.. لقد أزاله جدي على الأرجح حين أراد أن يخفي الباب.. حاولت أن أفتحه.. أن أدفعه بكلتا يدي.. هذا لن يجدي.. طلبت من العامل المساعدة.. ولم يكذب الرجل خبرا.. إذ نادى بعض زملائه ليأتوا بصندوق أدوات النجارة من سيارتهم.. يبدو أنهم لا يخرجون من دونه.. وراحت الأيدي الممسكة بالمفك والمطرقة -وأحيانا الكماشّة-تقوم بعملها بجهد كبير محاولة لإرضائي بأي ثمن وطمعا في بقشيش محترم كما يبدو.. إلى أن تمكنوا من كسر القفل أخيرا.. لكني صرخت بهم ألا يفتحوا الباب على مصراعيه.. بل يتركونه مواربا فقط.. لا أريد أن يكتشفوا شيئا مريبا قد يتسبب بفضيحة.. فلا أعلم ما الذي يخفيه جدي هنا.. خاصة مع سمعته السيئة.. لذا طلبت من كل منهم أن يعود إلى عمله وإلى التشطيبات النهائية من التنظيف.. كما طلبت من هذا العامل تحديدا أن يشغل المكنسة مرة أخرى ويزيل الجبس الذي تفتت على الأرض.

أما أنا فظللت أحدق بالباب الموارب بشيء من الخوف.. أعتقد أن الخوف من المجهول يكون مدفوعا دوما بصفة شائعة عند الانسان.. وهي الضعف!!.. لأن ما لا تعرفه يولد داخلك بطبيعة الحال شعورا بالضآلة وبالتالي يخيفك!!!.. رائحة عطن تخرج من الغرفة مما يدل على أن جدي قد أغلقها وختمها منذ سنوات طويلة.. هل يعقل هذا؟!.. وهل يعلم الممرض أو الخادمة بأمرها؟ !!.. أنتظر خروج العمال على أحر من الجمر كي أدفع الباب وأرى محتويات الغرفة.. لا أريدهم أن يعرفوا شيئا من أسرارنا العائلية.. خاصة حين أتذكر تلك الحقيقة التي يقشعر لها البدن.. وهي أن أبي قد شاهد جدي أكثر من مرة أثناء ارتكابه لجرائم القتل ليجر بعدها ضحاياه جرّا إلى غرفته.. أي غرفة كان يقصد؟!.. لا أحتاج إلى ذكاء لأعرف أن الإجابة قد تكمن خلف هذا الباب!!!.

العامل يسألني بحماس كما يبدو على ملامحه:

-هل تريدين تنظيف الغرفة؟!.

بالطبع.. فمن يلومه على هذا الفضول ونظرة التوسل الواضحة في عينيه؟!.. غرفة موجودة في بئر السلم ويتم ختمها وإغلاقها منذ سنوات لنكتشفها فجأة أمر يثير تساؤلات أي إنسان.. لكني أشرت له بإصبع مرتجف أن لا.. فعاد العامل إلى عمله بشيء من خيبة الأمل.. لتنتهي عملية التنظيف أخيرا ويخرج العمال من البيت بعد أن نقدتهم أجرهم ومنحت كل منهم بقشيشا محترما.. ظللت بعدها في الصالة وقد عم الهدوء أجواء البيت مرة أخرى.. أنظر إلى الغرفة للمرة العاشرة بقلق.. هل أنادي الممرض والخادمة؟!.. هل أتصل بشقيقي؟!.. إنني خائفة.. لكن يبدو أن الفضول كان أقوى من خوفي.. إذ تنهدت و.. دفعت الباب أخيرا.

في البداية أكاد أقسم أنه كاد أن يغمى علي.. هذا متوقع.. غرفة لم يدخلها الهواء طوال تلك السنوات.. كيف ستكون؟ ؟!.. رائحة العطن تلفح وجهي.. لم أنتبه لقوة الرائحة حين كان الباب مواربا.. ربما بسبب رائحة المنظفات التي ملأت أنفي في كل أركان البيت.

نور الصالة يقتحم الغرفة ليكشف عن الكثير من محتواها.. رحت أمعن النظر بمحتويات الغرفة برهبة ويدي تبحث عن زر الإضاءة بالقرب من الباب رغم أن النور المتسلل من الصالة كان كافيا لأرى كل شيء.. ثم.. مفتاح الإنارة لا يعمل بعد كل هذه السنوات.. هذا متوقع.. إنها غرفة صغيرة

الحجم نسبيا تتناثر فيها هنا وهناك 5 أجسام كبيرة الحجم وجميعها مغطاة بأقمشة بالية.. وكأن كلا منها تمثال لآدمي كما يبدو من حدوده الخارجية.. أرى أيضا خلف تلك الأجسام المغطاة مكتبة تحتل الحائط الخلفي كاملاً وتمتلىء بالكتب.. أما أرضية الغرفة فهي من الإسمنت.. فلا تحوي بلاطا ولا سجادا!!!.

اتجهت بتردد واضح ناحية أحد الأجسام وأمسكت بيد مرتجفة قطعة القماش المغبرة التي تغطيه.. ثم أزلتها ببطء.. لأفاجأ بصدمة لم أتوقعها في حياتي!!!.. إنه تمثال بالفعل.. تمثال من الشمع!!!.. لكن.. لكنه دقيق إلى درجة مخيفة.. فهو يشبه البشر كثيرا.. والمذهل أنه تمثال لفتاة ترتدي ذات الثياب التي ترتديها الممثلات في الأفلام العربية القديمة.. لم تكن الصدمة في وجود التمثال أو في دقة تصميمه فحسب.. بل في الشخص الذي يجسده.. نعم.. إنني أعرف تلك الفتاة جيدا.. إنها.. إنها أنا!!!!.

نظرت إلى التمثال مشدوهة غير مصدقة.. ثم وضعت يدي عليه ورحت أتحسسه برهبة واضحة غير مبالية بالأتربة التي تغطيه.. يا إلهي.. لماذا يصنع جدي تمثالا لي؟!.. إنه لا يعرفني أصلا.. وربما لو رآني في الشارع فلن يتعرفني.. هل.. هل شاهد أحدكم من قبل تمثالا لنفسه؟ !!.. صدقوني الأمر ليس ممتعا.. بل يحوي بعض النفور الغريب!!!.. أنظر بعدها إلى الأغطية المتسخة الأخرى.. أتجه لأزيلها واحدا تلو الآخر بمزيج غريب من الفضول والانبهار والخوف.. حسنا.. إنني.. إنني أمام متحف شمع حقيقي!!!!.. صدفة غريبة أن أول التماثيل التي أزلت الغطاء عنها يجسدني أنا!!!.

عزيزي القارئ.. هناك صدمات لا تستطيع أن تستوعبها إلا بعد فترة من الصمت والسكون وربما الشلل الجسدي.. وقد أصبت بهذا الشلل الجسدي وأنا أحدق بالتماثيل الخمسة باستغراب أنساني زمني واسمي وهويتي!!!.. فعدا التمثال الذي يجسدني.. كانت ال 4 الأخرى تجسد شخصيات كويتية غير معروفة من فترة ما قبل النفط.. وكأنه متحف لتاريخ (الكويت) القديم.. هذا واضح من اللباس.. العقال القديم والصديري الذي ارتبطت صورته بأذهاننا إلى يومنا هذا وما زلنا نراه على الشخصية الكويتية الشهيرة (بو جسّوم).. العباءة السوداء التي تحيط بتمثال لسيدة مع غطاء الوجه (البوشيّة) الذي كانت ترتده النساء في (الكويت).. ولا شك أن أكثر ما أخافني ذلك التمثال الذي يجسد رجلاً أسود البشرة طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم.. 3 تماثيل لرجال وتمثالين لامرأتين إحداهن أنا!!!.

هل أراد جدي إنشاء متحف هنا؟ !!.. ولماذا؟!.. أعترف أنني أحب المتاحف كثيرا لكني لا أحب أن أعيش في أحدها بكل تأكيد.. فالمتحف بالنسبة لي مقبرة لكنها تقع على الأرض وليس تحتها.. وقد كنت دوما أرى المتاحف كالماضي الذي تم تجميده ليراه الناس في المستقبل!!!.. هناك أمر آخر بالغ الغرابة.. يقال إنه عندما يمتلك الناس بعض الأشياء ويموتون.. فإن جزءا من أرواحهم يبقى فيها.. لكن جدي لم يمت.. لماذا أشعر أن روحه بين جنبات هذه الغرفة؟!!.

ظللت ألتفت يمينا ويسارا باحثة عن توضيح لما أراه.. فاصطدمت عيناي بالمكتبة الموجودة خلف التماثيل.. لقد نسيت وجودها!!!.. اتجهت ناحيتها لأمسك بأحد الكتب بحذر شديد لم أفهمه.. أنظر إلى الغلاف المغبر.. إنها مجرد رواية قديمة غير معروفة.. وضعت الكتاب في مكانه بهيبة حقيقية.. أتطلع إلى باقي عناوين الكتب بصعوبة بسبب التماثيل التي تحجب الكثير من الإضاءة القادمة من الصالة.

هذه الغرفة تحتاج إلى تفتيش دقيق جدا.. للعثور على ماذا؟!.. على تفسير لما أراه بالطبع.. وعن السبب الذي يجعل جدي يصنع ذلك المتحف ثم يقوم بختم الغرفة وإخفائها.. ولا أنكر أنني في أثناء ذلك شعرت بشيء من الغباء لانتقالي إلى هذا البيت مع سمعة جدي المخيفة والأمور المجهولة التي كان يصنعها في الماضي.. لقد أقنعني شقيقي أن الزمن قد قتل كل شيء.. وأن هناك فظائع قد ارتُكِبت في كل شبر نمشي عليه على حد قوله.. لكننا لا نعلم أو نتظاهر بأننا لا نعلم.. يبدو أنه مخطئ في كلامه.. فكل الغموض المحيط بحياة جدي قد ظهر بوجهي فجأة ولم أعد أراه مجرد ماضٍ!!!.. وعند الشعور بالخوف.. تجد أن تفكيرك يبتعد عن الواقع والحواس الخمس.. ليصبح فجأة مرتبطا بزيارة قصر (دراكيولا) في (ترانسلفانيا) ولعنات السحرة في أفريقيا السوداء وقبور الزومبي في (جامايكا)!!!.

تركت التماثيل وأنا أنظر إليها وأتراجع إلى الخلف برهبة وكأنني أخشى إيقاظها.. وما إن خرجت من الغرفة.. حتى اتجهت مباشرة إلى غرفة الخادمة.. طرقت الباب بعجالة.. لحظات قليلة قبل أن تطل منه مستفهمة.. أشرت إليها بيدي أن تتبعني دون أن أنطق بكلمة.. فتبعتني بخطوات سريعة محاولة اللحاق بي.. لنصل إلى تلك الغرفة المجهولة وأنا أشير إليها دون أن أنطق بكلمة.. إنها.. إنها تنظر إلى الغرفة باستغراب شديد لا يحتاج إلى ذكاء لأعرف أنها لم تكن تعلم بوجودها!!!.. ويبدو أن التماثيل قد أصابتها بصدمة حقيقية.. عيناها تتسعان.. تتراجع بخوف مبتعدة وهي تنظر إلي وكأنها تطلب توضيحا لما تراه.. إنني أنا من تحتاج توضيحا أيتها الحمقاء!!.

لكني سألتها رغم كل شيء:

-هل كنتِ تعلمين بوجود هذه الغرفة؟!.

هزت رأسها نفيا بقوة أن لا.. حسنا.. لم يعد لها دور هنا.. طلبت منها بلهجة آمرة العودة إلى غرفتها.. فامتثلت لكلامي واستدارت عائدة بتردد واضح.. دخلت بعدها غرفة جدي دون استئذان.. ووجدته مستلقيا كما هو حاله دوما دون أن أعلم إن كان مستيقظا أم لا.. الأمر سيان كما تعلمون.. أما الممرض فقد كان جالسا يشاهد التلفزيون باسترخاء.. التلفزيون يعمل لكن دون صوت.. يبدو أنه كان يشاهد فيلما ما مكتفيا بقراءة الترجمة.

نظر إلي مستغربا لاقتحامي الغرفة بهذه الحدة.. فطلبت منه أن يتبعني بسرعة دون مراعاة لفارق السن بيننا.. و.. نعم.. نفس النظرة.. نفس المفاجأة.. نفس الصدمة ربما!!!.. إذ وضع يده على رأسه وهو يقول:

-أنا.. أنا لم أعلم أبدا بوجود هذه الغرفة!!.. كيف.. كيف عثرت عليها؟!!.

قلت بهدوء يشوبه الذهول:

- كنت أنتظر الإجابة منك أو من الخادمة.. أنتما من تقيمان هنا منذ سنوات طويلة.. هل يعقل أنكما لم تعلما بوجودها ثم آتِ أنا في ليلة وضحاها وأكتشف مكانها؟!.

رد بشيء من الضيق بعد أن استوعب المفاجأة وبعد أن لاحظ أن سؤالي هذا يحوي اتهاما صريحا بأنه يخفي عني أمرا ما:

-يا ابنتي.. إنني أقيم هنا منذ سنوات طويلة نعم.. لكني لم أقلب البيت رأسا على عقب كما فعلت أنت بعملية التنظيف التي قمت بها اليوم.. إن وجودي في هذا البيت لم يتعدّ يوما البقاء في غرفة جدك والذهاب إلى الحمام.. فأنا أقضي جل وقتي في الاهتمام به أو الجلوس أمام التلفزيون

والعبث في هاتفي النقال.. ولا أخرج من هنا إلا للذهاب إلى المسجد القريب أو السوق المركزي!!!.

إنه محق دون شك.. أطرقت برأسي مفكرة وأنا أطلب منه دخول الغرفة ليرى ما رأيته.. فما إن دخل حتى تحوّل إلى تمثال هو الآخر.. وقد تطلب الأمر بعض الوقت ليستوعب الصدمة.. ثم راح يبسمل ويحوقل وكأنه رأى أشباحا.. وراح يتحدث عن غبائه لأنه لم يصدق.. لم يصدق ماذا بالضبط؟ !!.. لا أعلم.. سأعرف منه كل شيء بعد قليل.. طلبت منه أن يأتي معي إلى غرفة جدي لأتحدث إليه قليلا.. فاستجاب مباشرة وهو يمط شفتيه مستغربا والأفكار تلتهم بعضها في رأسينا.

ما إن دخلنا.. حتى أمعنت النظر في ملامح جدي.. لأجده مغمض العينين مما يوحي أنه نائم.. أنظر إلى الساعة الموجودة على الحائط فوق التلفزيون.. إنها تتجاوز السابعة مساء بقليل.. قررت أن أكشف المحظور.. سألت الممرض بصوت خرج هامسا دون سبب:

-لا شك أنك تستغرب انقطاعنا التام عن جدي طوال حياتنا تقريبا.. لكن صدقني.. توجد أسباب كثيرة حتمت علينا ذلك.. المهم الآن.. أريد أن أعرف كل ما تعرفه عنه.. أعلم أنني متأخرة كثيرا في سؤالي هذا.. أعلم أن جدي قد يموت في أية لحظة.. لكن الفضول الشديد يتملكني بعد هذا الاكتشاف الغريب.

نظر إلي باستنكار.. فكيف لحفيدة رجل أن تسأل شخصا غريبا عنه؟!.. لكنه هز كتفيه وهو يقول مستغربا:

-لا يوجد ما يقال يا ابنتي.. إنني أقيم معه منذ أكثر من 15 عاما.. وأهتم به بصورة كاملة تشمل إطعامه وتنظيف مكانه وحلاقة ذقنه وأخذه للاستحمام وإعطاءه أدويته في مواعيدها.. لقد كانت صحته أفضل في بدايات المرض بطبيعة الحال.. وكان قادرا على التحدث والتفاعل مع المحيط الخارجي إلى حد ما.. لكنه ظل يتحدث حول أمور عديدة لم أفهم منها حرفا.. عن تماثيل.. ومتحف.. وسحر.. مع كلمات كثيرة لا أذكرها الآن لأنني لم أعرها انتباها آنذاك.. إذ كنت واثقا أنها -لا مؤاخذة -تخاريف شيوخ.. ومع مرور الأيام قلّت كلماته حتى انعدمت تماما منذ حوالي 13 سنة.

سألته باهتمام:

-ما المرض الذي يعاني منه تحديدا؟!.. ومن الذي علم بأمره وإصابته بهذا المرض أصلا؟!!.

قال بهدوء:

-الخادمة.. فهي تعمل في بيته منذ 18 عاما تقريبا كما علمت منها.. إنها عاقر لا تنجب.. وقد توفي زوجها منذ زمن.. وليس لديها أهل أو أقارب تهتم بهم أو ترسل لهم أموالها.. فحياتها بأكملها هنا في (الكويت).. بل هي لم تعد لبلدها منذ سنوات طويلة جدا.. يبدو أن جدك اختارها بهذه المواصفات لأسباب لا أفهمها.. المهم أنها اتصلت بالمستشفى ذات يوم لتخبرهم أن جدك قد بدأ يفقد سيطرته على نفسه.. إذ تجده محبطا مكتئبا أحيانا.. وأحيانا أخرى تجده غاضبا للغاية ويسير في أرجاء البيت على غير هدى.. مع رعاش ملحوظ أصاب يديه.. بالإضافة إلى الهذيان بكلام غير منطقي مما يوحي أنه بدأ بمرحلة الخَرَف التي يمر بها الشيوخ عادة.. كما لاحَظَتْ أنه بدأ ينسى أمورا بديهية ويكرر كلامه كثيرا وكأنه يقوله للمرة الأولى.. كانت الصورة واضحة لا تخفى

على أي طبيب أو حتى ممرض.. فهذه أعراض الخَرَف ([10]) وتحديدا مرض (آلزهايمر) كما ذكر تقرير الأطباء فيما بعد.. فجاءت سيارة الإسعاف لتقله إلى المستشفى.. حيث ذهبت الخادمة معه من باب الوفاء لتعرف ما سيحدث له.. وهناك أخبروها بطبيعة مرض جدك وأنه سيحتاج عناية خاصة من الآن فصاعدا.. ونصحوها بجلب ممرض مختص ليهتم به.. فقامت بنفسها بالاتصال بالشركة التي أعمل بها.. وتم اختياري للعمل هنا منذ عام 1999 حسبما أذكر.. وها أنا أنفذ عملي على أكمل وجه منذ ذلك الحين.

غمغمت مستغربة:

-ماذا عن مصاريف العلاج وغيرها من مصاريف البيت؟!.

رد سريعا:

-جدك يثق بالخادمة ثقة عمياء.. فهي تحمل توكيلا بنكيا عنه لتسحب راتبه التقاعدي بصورة شهرية وتصرف به على البيت وتدفع مستحقات الشركة.. إنها تقوم بعملها بإخلاص.. وهي ترى جدك بمثابة الأب لها.. أرى هذا بوضوح في تعاملها المستمر معه.

أومأت برأسي وقد تأثرت مشاعري كثيرا فبت لا أعرف إن كان ابتعادنا عن جدي طوال حياته تقريبا خطأ أم لا.. لكن.. هل يلومنا أحد بعد ما سمعناه من أبي رحمه الله بنفسه؟!.. لحظة صمت وأنا أستذكر كل هذا.. ثم:

-ماذا عن نظافة البيت؟!.. لقد كان بمنتهى القذارة.. ورأيت بنفسك كم أخذت عملية تنظيفه بالكامل من وقت وجهد!!!.

رد معتذرا:

-لقد كانت الخادمة تقوم بتنظيف البيت بالكامل في السابق.. لكن توقفت عن ذلك مع مرور السنوات وبعد أن كبرت وأصبح العمل الشاق يرهقها.. فبدأت تهتم بتنظيف غرفة جدك والحمام والمطبخ فقط مع غسيل الثياب.. هذا كل ما نحتاجه منها عموما.

قلت محتجة:

-لكن هذا لا يعني أن تتركوا البيت بهذه القذارة.. لقد رأيت كم الفئران والحشرات التي تم اصطيادها.. كيف كنت تقيم في مكان كهذا؟ !!.. لقد بدا البيت لوهلة وكأنه خارج نطاق الزمن!!!.

هز كتفيه بما يعني أنه لا يوجد لديه ما يقوله.. فتجاوزت تلك النقطة.. وسألته أهم سؤال:

-ماذا عن تلك الغرفة الغريبة؟!.. هل سمعت جدي يتحدث عنها من قبل؟!.. وماذا كنت تعني حين وصفت نفسك بالغباء قبل قليل لأنك لم تصدق على حد قولك؟!.. لم تصدق ماذا تحديدا؟!!.

قال بصوت خرج مرتجفا دون أن أفهم السبب:

-كما قلت لك.. لقد كان جدك يهذي بأشياء كثيرة لم أظن أن لها أي معنى.. فظننت أنها أعراض (آلزهايمر).. لقد ذكر كلمات مثل (تماثيل).. و(أرواح).. و(قتل).. و(سحر).. مع كلمات أخرى غريبة غير مفهومة.. لكنه كان يقولها في جمل غير مترابطة لم أعرها الكثير من الاهتمام.

أصبت بضيق شديد!!!.. يبدو أن كل الأقاويل التي انتشرت حول جدي حقيقية مع الأسف.. لقد كان يقتل الناس ويمارس عليهم السحر.. (النكرومانسي) ربما كما أشيع عنه!!!.. كنت آمل أن يكون أبي -رحمه الله- مخطئا ولو بنسبة 1%.. يا إلهي.. من الصعب أن تحمل عائلتنا إرثا كهذا.. لكن.. لم أفهم بعد سبب وجود الغرفة وتلك التماثيل وكيف يرتبط كل هذا بالسحر.. مهلا.. مهلا.. مهلا.. يا لي من غبية.. هل يعقل أن يكون هذا هو التفسير؟!.. بل هو التفسير الوحيد المتاح!!!.. هل.. هل هذه التماثيل لجثث حقيقية؟!!!.. هذا ما يقوله المنطق.. نعم.. لقد ارتكب جدي جرائم قتل بشهادة أبي نفسه.. وقد رآه أبي وهو يسحب الجثث إلى هذه الغرفة على الأرجح.. فما الذي فعله بها؟!.. هل قام بتحنيطها أو صب الشمع عليها لسبب متعلق بالسحر؟!!.. لقد شاهدت ذات مرة فيلم رعب تصرف فيه المجرم بهذه الطريقة مع ضحاياه ([11]).. اقشعر بدني من هول الفكرة!!!.. لكن هذا لا يفسر وجود تمثال لي.

سألت الممرض بتقزز:

-هل حاولت من قبل استكشاف البيت للتأكد من كل هذا الكلام؟!.

قال وهو يزفر بعمق:

-نعم.. لكني فعلت ذلك من باب الملل فحسب وليس للبحث عن أشياء مريبة.. فلا أنكر أنني قمت بالتجول في البيت ودخول كل غرفه بضع مرات.. أما غرفة المتحف تحديدا فأنا أؤكد لك أنني لم أكن أعلم بوجودها أبدا.

غرفة المتحف؟!.. اسم غريب وطريف بالوقت نفسه.. وكأن كل بيت يحتوي على غرفة خاصة للمتحف مثلما يحتوي على غرفة طعام وغرفة نوم.. إلخ.. المهم أنني طلبت منه أن يذهب معي مرة أخرى لغرفة المتحف هذه علنا نعثر فيها على شيء يوضح لنا حقيقة الأمر بعد أن تجاوزنا صدمة الاكتشاف.. فذهبنا إليها بالفعل.. ورحنا نحدق بالتماثيل مرة أخرى معتمدين على إضاءة الصالة.. نحاول أن نستكشف منها شيئا.. الممرض يقول منبهرا وهو يحدق بي:

-مهلا.. أليس هذا التمثال يجسدك أنت؟!!.

أومأت برأسي أن نعم.. فسألني باستغراب:

-أنا لا أفهم.. ما الذي يجعل جدك يصنع تمثالا لك؟ !!.. كيف عرف شكلك إذا كنت لم تلتقِ به من قبل؟!.

قلت بحنق:

-ليتني أعلم.. لقد صنع هذا التمثال قبل مولدي.. لكنه يجسد صورتي الحالية وأنا في هذه السن تقريبا.. فكيف عرف جدي أن ستكون لديه حفيدة وسيغدو شكلها كما هو عليه الآن؟!.. كيف؟!.

هز كتفيه باستغراب عاجزا عن الإجابة.. ليقف كل منا في مكانه فترة من الزمن دون أن نتفوه بكلمة.. ثم.. تنحنح الممرض فجأة وقال بشيء من الاعتذار:

-المعذرة يا ابنتي.. ليس من المفترض أن أتدخل بشيء.. صحيح أنني أعتبر جدك بمثابة والدي بعد كل هذه السنوات التي قضيتها معه.. لكنني في النهاية مجرد رجل غريب.

قالها وقد قرر كما يبدو أن يتناسى كل شيء ويعود لحياته الطبيعية التي عاشها في هذا البيت

طوال السنوات السابقة.. فخرج من الغرفة وتركني وحيدة أواجه ذلك اللغز!!!.. إنه يريد الابتعاد عن المشاكل كحال أي مقيم في هذا البلد.. لذا لم أجد بدّا من العودة إلى غرفتي بدوري وقد قررت الاتصال بشقيقي.. لا بد أن يعلم بأمر هذا الاكتشاف الغريب.. لا أعرف كيف سيتصرف.. ولا أعرف إن كان هناك شيء يجب فعله أصلا.. لكن الأمر يستحق المحاولة.

اتصلت به وأخبرته بكل شيء.. في البداية بدا وكأنه لم يستوعب كلامي.. فكررت ما قلته مرة أخرى بالتفصيل الممل.. شهقات مستمرة.. صمت طويل وهو بين التصديق والتكذيب عاجز عن تكوين وجهة نظر واضحة ليطرحها على لسانه.. لكنه في النهاية استجمع أفكاره وقال ببغض:

-إذا.. كل ما سمعناه عن جدي كان حقيقيا مع الأسف!!!.. لقد تمسكت بذرّة من الأمل أن يكون أبي -رحمه الله-مخطئا بشأنه.. لكن الأمور لا تقبل الشك الآن!!!.

قلت بمحاولة أخيرة يائسة:

- وجود متحف شمع مصغّر في غرفة مخفيّة لا يعني أن جدنا كان يقتل الناس ويصب قوالب الشمع عليهم.. ثم ماذا عن التمثال الذي يجسدني؟!.. إنه لم يقتلني بالطبع!!!.

رد بعصبية:

-وهل ترين أنه من الطبيعي أن يصنع رجل تماثيل من الشمع ويخفيها في غرفة مجهولة ثم يغلقها ويختمها إلى الأبد وكأنه يخفي جريمة ما؟ !!.. كيف تفسرين كل هذا مع سمعته السيئة؟!.. هذا الرجل قاتل وساحر كما قال عنه أبي.. أو له اتصال بالجن.. لا أجد تفسيرا آخر.

لم يعد هناك المزيد ليقال.. فأغلقت السماعة مع وعد من شقيقي لزيارتي قريبا كي يرى ذلك المتحف بنفسه بعد أن أثار الأمر فضوله.. لكن.. مهلا.. هناك استنتاج بسيط وبديهي جدا لم يطرأ ببال شقيقي وقد طرأ ببالي للتو.. التمثال الذي يجسدني!!.. هل هو لجثة جدتي مثلا بعد أن قتلها جدي كما هو متوقع؟!!!.. أنا لم أرَ جدتي ولا أملك أي صور لها.. ربما أنا أشبهها كثيرا والتمثال يجسدها هي في واقع الأمر وليس أنا!!!.. من يدري؟!.. يا إلهي.. هذا الاستنتاج مخيف للغاية.. دعكم من التساؤلات والوساوس التي تراودني لو اكتشفت السلطات وجود هذا المتحف وأرسلوا من يفحص التماثيل ويكتشف الجثث التي تخفيها كما هو متوقع.. ما زال عقلي متأرجحا غير مصدق ما أمر به.. لقد بت أرى البيت وكأنه قصر تاريخي أو مقبرة فرعونية تحوي ألغازا هائلة تحتاج من يكشفها!!!.

حاولت أن أطرد تلك الأفكار من ذهني لكني عجزت تماما.. فذهبت للخادمة لأطرح عليها بعض الأسئلة علها تعرف المزيد عن تاريخ جدي.. لكن.. لا شيء إطلاقا.. لم تقل أكثر مما أخبرني به الممرض.. يبدو أن هذا الاكتشاف قد قتل كل المتعة التي شعرت بها في تنظيف البيت اليوم.. ظللت أفكر وأفكر.. ويبدو أن غريزة الجوع قد تغلبت على تساؤلاتي أخيرا.. نعم.. فأنا لم آكل شيئا منذ استيقاظي من النوم.. تخيلوا هذا.. لقد دخلت المطبخ في فترة الغداء ولم أستسغ إطلاقا ما كانت تطبخه الخادمة.. والواقع أنني لا ألومها على ذلك.. فلم توجد في هذا البيت امرأة لتعلمها أصول الطبخ.. كما أنني انشغلت كثيرا مع عمال النظافة ومع ذلك الاكتشاف الغريب.. لكن لن أحتمل الجوع أكثر.. فأمسكت بهاتفي النقال للاتصال بأحد مطاعم الوجبات السريعة.

رحت بعدها أشاهد التلفزيون في غرفتي إلى أن حانت تلك اللحظة السعيدة بوصول الطلب.. فجلست أمام شرائح البيتزا ورائحتها الزكية تفوح وتقتحم أنفي.. شاعرة بشيء من الإرهاق بعد هذا

اليوم الحافل محاولة أن أرجئ التفكير بذلك اللغز الغريب.. لأبدأ بعدها بالتهام شرائح البيتزا واحدة تلو الأخرى برضى تام وقد شعرت أخيرا بالخصوصية التي افتقدتها كثيرا منذ تخرجي وعودتي إلى (الكويت).. حقا أن كسرة من الخبز تؤكل في هدوء خير من وليمة تحضرها وأنت قلق!!!.

و.. ما إن انتهيت من إزالة بقايا الأكل وأخذ الحمام الساخن مستمتعة كثيرا بنظافة البيت.. حتى جلست على فراشي وأخذت ورقة وقلما لأبدأ بترتيب حياتي للأيام القادمة محاولة أن أتناسى قصة ذلك المتحف.. مقتنعة أن كل ما يحويه من الزمن الغابر الذي عاشه جدي ولا داعي أن يستحوذ على تفكيري.. لم يكن هذا بالأمر الهين بالطبع.. فكل شيء يوحي أن ما اكتشفته هو مجرد مقبرة.. مقبرة من نوع جديد.. هل يستطيع أحد أن يعيش في بيت كهذا؟!!.

لذا كان أول ما فعلته حين تذكرت تلك الحقيقة هو إغلاق باب غرفتي وقفله.. هذا يمنحني شعورا لا بأس به بالأمان.. كيف؟!.. لا أعلم.. ربما الأمر متعلق بالناحية النفسية فحسب.. ثم.. كتبت على الورقة السؤال الذي يتردد في ذهني منذ الأمس: هل سأقيم طويلا في هذا البيت؟!.. وهل كانت خطوة انتقالي إليه صحيحة أصلا؟!.. لا أعلم.. لكن لا يوجد مكان آخر أقيم فيه حاليا.. والمرء يفعل كل شيء من أجل كرامته.. لم أكن لأحتمل أن أقيم مع فتاة في غرفتها رغما عنها.

المشكلة أنني صرفت الكثير من نصيبي في الميراث في فترة الدراسة.. واشتريت سيارة حال عودتي إلى (الكويت).. والحياة تزداد تعقيدا والمصاريف مرهقة والغلاء فاحش.. فلا أريد أن أصرف الجزء القليل المتبقي من الورث على تأجير شقة يعلم الله كم سأقضي من الوقت فيها قبل أن أحصل على وظيفة.. لكني سأفعلها في النهاية بكل تأكيد.. أشقائي سيتقبلون الأمر الواقع رغم اعتراضهم الشديد المتوقع في بادئ الأمر.. أفكر بكل هذا وعقلي يسرح ويمرح بعيدا عن جسدي.. صوت البيانو الهادئ ينبعث من هاتفي وأراه الحل الوحيد لكل مشاكلي حاليا.. فأفضل مكان أختبئ فيه من العالم هو الموسيقى.

تحولت الورقة البيضاء إلى مجموعة من الخطوط والدوائر غير المفهومة.. لأضعها جانبا على منضدة صغيرة بجانب فراشي شاعرة بنعاس مباغت مع معدتي الممتلئة.. كل شيء سيكون أفضل في الصباح.. دائما الأمور تصبح أفضل في الصباح.. لكن هذا لم يمنع أن أندس تحت اللحاف بالكامل محاولة أن أشعر نفسي بالأمان.. أنتم تعلمون جيدا كيف يمكن للخيال أن يلعب دوره.. فكانت لحظات سيئة للغاية تلك التي سبقت نومي.. أتخيل أن تنهض التماثيل من سباتها لتصعد وتدخل غرفتي وتسبب لي رعبا سيقتلني مباشرة دون شك.. لكني نمت أخيرا مع التلفزيون الذي تركته مفتوحا دون صوت كما هي عادتي حين أنام منذ أيام دراستي الثانوية.. لتنتهي الليلة الثانية في بيت جدي على خير رغم كل شيء.

مرت بعدها بضعة أيام قليلة هادئة لم أفعل فيها ما يستحق الذكر سوى الخروج مع صديقاتي وقضاء بعض الوقت معهن.. دون أن أخبرهن عن إرث عائلتنا الأسود بالطبع.. كنت أكره البقاء ساعات طويلة في هذا البيت.. توجد طاقة سلبية هنا لا أحد ينكرها.. وربما لن تزول إلا لو قام أحدهم بهدمه بأكمله ثم بنائه من جديد.

لكنني ظللت رغم ذلك أزور جدي في غرفته بصورة يومية.. ربما من باب الواجب كوني أقيم في بيته.. فأقوم بتقبيل جبينه والمسح على رأسه في مشهد تمثيلي أمام الممرض.. ثم أقضي بعض الوقت في غرفتي لمشاهدة التلفزيون.. كما فكرت أن أطلب من شقيقتي الكبرى أن تعلم الخادمة

أصول الطبخ.. لكني صراحة لم أجد الأمر يستحق.. إنني فتاة عملية جدا وقد اعتدت الأكل الجاهز أثناء دراستي في الخارج.

أطرح تلك الأفكار جانبا وأحاول الاستمتاع بحياتي الجديدة بعد تخرجي من الجامعة.. فما زالت أجواء الاختبارات والمحاضرات البغيضة تسيطر على رأسي.. لا تنسوا أنني تخرجت منذ أقل من 3 شهور فحسب.. لذا وضعت لمسات بسيطة على غرفتي علّها تضيف البهجة على حياتي.. فاشتريت بعض الكماليات.. كمجموعة من دببة (تيدي) التي وضعتها على أحد الأرفف.. مع لوحة فنية جميلة كبيرة الحجم لإحدى الغابات.. أحاول أن أعيش حياة طبيعية في بيت غير طبيعي دون أن أشعر بأي جدوى في محاولاتي تلك.. كالرجل الذي يضع مساحيق التجميل ليزداد وسامة.. فمهما فعل.. تجده يزداد قبحا.

ولا أنسى أن أذكر أن شقيقي قد زارني ليرى المتحف بنفسه.. فبسمل وحوقل كثيرا حينها.. ويبدو أنه تذكر أنه بهذا التصرف يخيفني أيضا.. لذا تدارك نفسه وراح يكرر كلامه ويتحدث عن أن كل ما نراه ماضٍ انتهى ولن يعود.. وأن هذا المتحف المصغّر لا يحوي سوى تماثيل سخيفة لن تضر بشيء حتى لو كانت تحوي جثثا في داخلها كما هو متوقع.. ثم اقترح أن نأتي بمن يخرج تلك التماثيل من هنا ويرميها في أقرب حاوية نفايات لنغلق تلك الغرفة المشؤومة ونختمها إلى الأبد.

الغريب.. الغريب أنني رفضت هذا الاقتراح!!!.. نعم.. لا أعرف السبب.. صدقوني لا أعرف.. قد يكون الفضول الشديد ورغبتي بكشف الأسرار المحيطة بحياة جدي.. وشعوري أن الأمر -ربما- ليس كما يبدو عليه.. وأن هذه الغرفة هي على الأرجح الأمل الأخير في اكتشاف الحقيقة كاملة وقطع الشك باليقين.. الطريف أن شقيقي لم يدخل غرفة جدي يومها لتقبيل جبينه والاطمئنان على حالته.. لقد بات يكرهه أكثر من السابق كما يبدو ويتعامل معه كأنه وباء يجب تجنبه.. لا ألومه على ذلك.. حتى إنه طلب مني أن أبقي أمر ذلك المتحف سرا ولا أخبر أحدا من أفراد الأسرة.. ربما لأننا لا نريد أن تفتح ملفات قديمة من أدراج الزمن الغابر ونحيي تاريخ جدي الأسود مرة أخرى.. وقد أنهى شقيقي زيارته حين احتضنني وهو يقول ببغض:

-رجل ارتكب جرائم قتل وكان يمارس السحر والاتصال بالجن وكل ما يجعل الجسد يقشعر منه.. فلا تستغربي أي مفاجآت تجدينها في بيته!!!.. لحسن الحظ أن موته مسألة وقت فقط.. لن يعيش طويلا.. هذا مؤكد.

عموما فإن موته ليس مهما بالنسبة لي حاليا.. بل أن يتم ترشيحي للعمل في إحدى الجهات الحكومية كما هو مفترض.. آمل ألا يتأخر هذا كثيرا.. ستحل جميع مشاكلي عند عثوري على وظيفة.. أتذكر ذلك فأتصل بإحدى قريباتي التي تعمل في ديوان الخدمة المدنية لأسألها عن توظيفي.. فتخبرني أن لا جديد هناك.. علي أن أنتظر!!!.. أشكرها بشرود وأنهي المكالمة.. لقد بت متأكدة أن أحدا لن يقف في طريقي لو قررت الانتقال والسكن في شقة.. ربما سيكون هناك بعض الاعتراض المسرحي من أشقائي كون الأمر لا يتوافق مع عاداتنا وتقاليدنا.. لكنهم في النهاية سيخضعون للواقع ولن يملكوا الاعتراض.. فلا يوجد أحد منهم لديه مكان لاستقبالي وإقامتي عنده.

ولا أنكر أنني دخلت تلك الغرفة أكثر من مرة في الأيام القليلة التي تلت اكتشافها.. أفحص التماثيل برهبة شديدة محاولة ألا ألمسها كي لا تتلوث يداي بالجثث التي قد تحويها.. ودون أن أنكر أن قلبي كان يضطرب بسبب ذلك الشعور البغيض أن الحياة ستدب فجأة في أحدها ليحيل حياتي

رعبا.. كما تصفحت المزيد من الكتب الموجودة دون أن أعثر فيها على شيء يذكر.. مجرد روايات قديمة وكتب تاريخية.. لكن.. بعد مرور أسبوع آخر تقريبا.. بدأت أنسى الأمر.. حتى بت لا أكترث كثيرا لأمر هذا المتحف!!.

قد يتساءل البعض.. كيف تأقلمت على الحياة في بيت يحوي مقبرة على هيئة متحف شمع؟!.. ربما لأن التعود يقتل الرعب.. يقتل الغرابة!!!.. لقد كان هذا المتحف يجسد لي كل الخوف في العالم.. لكني اعتدت وجوده الآن فبات مجرد غرفة من غرف البيت تحوي تماثيل سخيفة.. تماما كحال من ينام في غرفة مليئة بالثعابين غير السامة.. سيشعر بالتقزز وقد يعجز عن النوم لفترة من الزمن.. قبل أن يعتاد عليها وعلى وجودها حوله مع مرور الأيام.. لا توجد أي مبالغة في كلامي.. فعلم الاجتماع يؤكد ذلك.. وكما قال أخي.. لا بد أن هناك آلاف الجثث التي دُفنت تحت كل شبر نمشي عليه دون عِلمنا أو أننا نتظاهر بعدم عِلمنا.. فلِم نملأ العالم صراخا لو اكتشفنا أحدها؟!!!.

لكن.. الأمور لا تسير دوما كما نتوقعها.. ولو انتهت القصة عند هذا الحد لما كتبتها رغم غرابة ما كتبت حتى الآن.. فهناك المزيد.. خاصة بعد ذلك الاتصال الهاتفي!!!.. ولا أبالغ لو قلت إنه أغرب اتصال أتلقاه في حياتي!!!.. كان هذا بعد أكثر من أسبوعين على اكتشاف ذلك المتحف.. عندما كنت أجلس مع مجموعة من صديقاتي في مقهى (ستاربكس) بمنطقة (الشعب البحري) نتسامر ونضحك.. حين رن جرس هاتفي النقال.. فنظرت إلى الشاشة بطريقة آلية لأجد أن الاتصال يأتي من خط أرضي.. من الذي يستخدم الخط الأرضي الآن؟!.. أكره هذا كثيرا كوني لن أعرف هوية المتصل إلا إذا قمت بالرد.

ضغطت على زر استقبال المكالمة ظنا أنه رقم أحد أفراد الأسرة.. ثم:

-ألو

قلتها ببساطة ومرح بسبب الأجواء الجميلة التي كنت أقضيها مع صديقاتي.. لأسمع صوتا ذكوريا يقول فجأة ودون أي مقدمات:

-آنسة (صغيرة).. ما يحدث هنا مخيف.. مخيف للغاية!!!.

لم أفهم شيئا لكن الصوت بدا مألوفا.. سألت مستفهمة:

-من المتحدث؟!!.

رد الصوت بجدية وتوتر شديد:

-أنا الممرض!!!.

إذا هذا رقم الخط الأرضي لبيت جدي!!!.. يبدو أن الممرض سينقل لي خبر الوفاة أخيرا.. شعرت بالتوتر.. جسدي بدأ يرتجف.. نعم.. مهما كان رأيك بالمريض.. ستصيبك تلك القشعريرة حين تظن للحظة أنك ستسمع خبر وفاته.. لكن.. لا.. لا.. يقول أن ما يحدث في البيت مخيف للغاية.. فما الذي يحدث تحديدا؟!.. سكت منتظرة منه أن يكمل.. ليقول آخر ما توقعت:

-التماثيل.. التماثيل.. أحدها تحرك وترك مكانه!!!!.. لقد دخلت المتحف قبل قليل من باب الملل والاستكشاف.. لأجد التماثيل ناقصة واحدا!!!!.

لم أرد عليه مباشرة.. بل سكت للحظة غير مستوعبة ما قاله.. لكني تداركت نفسي سريعا حين

قلت بعصبية:

-هل جننت؟!.. ما تقوله مستحيل.. ثم عليك أن تكف عن فضولك هذا.. أنت لست في بيتك كي تتجول في الغرف كما شئت!!!.

رد بذعر حقيقي وقد بدا للحظة وكأن الزبد يحتشد على جانبي فمه:

-أرجوك.. أرجوك.. لا وقت لهذه المحاضرات.. أنا لا أتوهم شيئا.. لقد كان عدد التماثيل 5.. إنهم الآن 4!!!.. بل.. بل ورأيت منذ قليل التمثال المفقود يمشي أمامي في صالة البيت!!!!.

لا يمكن أن يكذب الممرض.. لماذا يكذب أصلا؟!.. شعرت أن تفاحة آدم خاصتي ترتفع وتنزل من كثرة بلع لعابي في محاولة من جسدي لإظهار ردة فعل غريزية تعبر عمّا يعتمل داخلي من رعب ([12])!!!.. نبضات قلبي تتزايد بشكل ملحوظ.. ونسبة (الأدرينالين) التي يفرزها جسمي تبريرا لخوفي تقوم بواجبها على أكمل وجه.. مخزون العرق في جسمي بدأ ينقص بعد أن أفرغ محتوياته بسرعة غير معقولة على شكل قطرات تصببت بسرعة البرق فوق جبيني.. وبالطبع كان لخوفي تأثير واضح على صديقاتي كما يبدو.. فتوقفن فجأة عن الحديث وهن ينتظرنني أن أنتهي من المكالمة ليعرفن ما حدث بالضبط.. لكني لم أمتلك البال الرائق لشرح ما سمعته لهن.. إذ تركتهن ونار الفضول تلتهم أعينهن.

خرجت من المقهى بسرعة وأنا ما زلت ممسكة بهاتفي أتحدث مع الممرض الذي يصر على أن آتِ إلى البيت الآن وأرى ما يحدث بنفسي.. حسنا.. إنني في الطريق إلى البيت بالفعل.. زحمة الشوارع تزيد من توتري وتجعلني أضرب المقود بقبضتي وأنا أصرخ في الناس أن يتحركوا دون أن تخرج صرخاتي عن حدود السيارة!!.

لقد اعتدت دوما ألا أقود السيارة إلا مع صوت الأغاني التي أندمج معها بكل حواسي.. حتى إنني لا أغني فقط مع جهاز التسجيل.. بل أؤدي الأغنية بصدق يسبب لي الكثير من الإحراج أحيانا عند إشارات المرور.. لكن الممرض الأحمق جعلني أقود سيارتي بطريقة انتحارية بالنسبة لفتاة.. قلبي يذوب رعبا وقلقا.. مشكلة القلق أنه مثل الكرسي الهزاز.. يمنحك شيئا تفعله لكنه لا يأخذك لأي مكان!!!.. هل أتصل بشقيقي كونه الوحيد الذي يعلم بأمر هذا المتحف الملعون؟!.. سأنتظر قليلا.. ربما يكون هناك خطأ ما.. لا شك في ذلك.. لا شك في ذلك.. التماثيل لا تتجسد فيها الحياة مهما مارس جدي من سحر.. هذا مستحيل علميا ودينيا.. أردد تلك العبارة بشجاعة غريبة بعد أن حاولت تمالك أعصابي.. إلى أن وصلت البيت أخيرا.

أوقفت سيارتي.. ودخلت مسرعة عبر ساحة البيت الداخلية وقد ضغطت للتو على رقم شرطة النجدة ولم يتبقّ سوى الضغط على زر الإرسال.. يجب أن أكون جاهزة لأي كارثة قادمة.. إلا أن الصالة كانت خالية تماما!!!.. لم أرَ أي شيء غير عادي.. صرخت بالممرض أن يأتي.. لكني لم أمنحه الوقت ليفعل.. إذ دخلت غرفة جدي مباشرة دون أن أجرؤ على الذهاب قبلها إلى المتحف للتأكد مما سمعته على الأقل.. و.. وجدت الممرض يرتجف رعبا وهو يقول ملوحا بذراعيه:

-لقد.. لقد عاد التمثال إلى مكانه قبل وصولك!!!!.. عاد كما كان.. أعلم أنك ستظنينني مجنونا.. لكني أقسم لك أن الحياة قد دبت في تمثال الرجل الأسود غليظ الملامح.. رأيته يمشي في صالة البيت بهدوء شديد دون أن يلتفت لأحد.. ثم دخل المطبخ ليختفي هناك.. لا يمكن أن تصدق مدى الرعب الذي أصابني!!!!.. فاتصلت بك وأنا مختبئ هنا.. لكني تشجعت بعدها بقليل وخرجت.. لأجد التمثال وقد عاد إلى مكانه في غرفة المتحف وكأن شيئا لم يكن!!!.

هذا الممرض ليس سوى أحمق كبير إذا.. ربما أصابه الخَرَف هو الآخر.. إنه في الستين من العمر كما عرفت منه.. يبدو أنه يحتاج إلى ممرض هو الآخر.. قلت وقد عاد الهدوء إلى صوتي:

-المعذرة.. لكن من المؤكد أنك كنت واهما.. أمور كهذه يستحيل أن تحدث.. حتى في أكثر أفلام الرعب إغراقا في الخيال.. مهلا.. أين الخادمة.. هل رأت شيئا؟!!.

قال مطئطأً برأسه:

-لا.. غرفتها بعيدة عن الصالة كما تعلمين.. وهي لم تكن خارج غرفتها حينها.. و....

لم يكمل عبارته بسبب نظراتي المبتسمة الساخرة التي خرجت رغما عني.. فراح يدافع عن نفسه بحرارة وبالمزيد من القسم.. لذا محوت النظرة الساخرة سريعا وحاولت طمأنته بأن الأمور بخير وأنني وصلت البيت للتو ولم أرَ شيئا.. وهناك احتمال هائل أن يكون واهما بسبب عامل السن ربما أو ضعف البصر كونه يرى العالم من خلف نظارات سميكة.. أحاول أن أقنعه ونفسي بهذا الكلام.. عيناه مصابتان بذعر حقيقي وهو مقتنع تماما بما رآه كما يبدو.. هذا مستحيل.. مستحيل.. مستحيل.. ظللت أرددها في قرارة نفسي إلى أن اقتنعت أنه واهم بالفعل!!.. فأخذته معي إلى غرفة المتحف دون أن أنكر الرهبة الشديدة التي تملكتني.. حتى إنني ضغطت قبلها على كل مفاتيح الإضاءة في الصالة كي يتسلل نورها إلى الغرفة.. لا جديد في الأمر.. التماثيل تقف شامخة كما كانت وكما ستكون.. من المضحك أن هناك رجلين في البيت.. أحدهما ميت حي.. والآخر هذا الأحمق.. في حين ألعب أنا دور الرجل!!!.. المهم أنني طلبت من الممرض أن يذهب إلى غرفته.. ولولا فارق السن بيننا لصرخت به وقلت له رأيي بعقله وقوة بصره بعد حالة الفزع التي سببها لي!!!.. لكني لن أسيء إلى رجل في عمر والدي على كل حال.

تركته في غرفة جدي وهو لا يزال يقسم ويحاول إقناعي وسط تجاهلي التام لكلامه.. ثم اتجهت إلى غرفتي في الطابق الأعلى وأنفاسي بدأت تنتظم شيئا فشيئا.. أتذكر قصة قرأتها منذ زمن بعيد عن رجل صنع تمثالا وأتقنه إلى درجة مخيفة.. وعندما انتهى منه راح يتأمله بدهشة.. فصرخ قائلا: ((يا إلهي.. إنه يبدو حقيقيا تماما)).. ثم خر ميتا بسكتة قلبية!!!.. أعلم أنها قصة سخيفة.. لكنها طرأت في ذهني لأن التماثيل تبدو حقيقية أيضا إلى درجة الإتقان.. إلى درجة قد تخدع أي شخص ليظن أن الحياة قد تدب فيها فجأة!!!.. لا بد أن هذا ما حدث مع الممرض.. خاصة أنه بات يعرف الآن أنها على الأرجح تحوي جثث ضحايا جدي.. إنه الجنون بعينه.. لكنني أعيشه واقعا.

ما زلت غير مصدقة كيف يجتمع الغموض والرعب والسحر بمكان تقليدي للغاية يعيش فيه أناس بسطاء لا يعرفون ما يجري حولهم؟ !!.. تخيلوا أن أخرج إلى بيت الجيران لأخبرهم عن ماضي جدي وعن هذا المتحف.. سيبدو الأمر وكأننا نتحدث عن اكتشاف مقبرة فرعونية في (الكويت).. فكل منهما من عالم مختلف.. أقول هذا الكلام لنفسي دون أن أعلم إلى أي مدى كان الممرض محقا فيما رآه!!!!.

ففي مساء اليوم نفسه.. وبعد ساعات قليلة قضيتها في غرفتي مستمتعة بمشاهدة أحد الأفلام والعبث بهاتفي النقال محاولة أن أتناسى أمر التماثيل.. شعرت بالنعاس الذي ظللت أقاومه حتى آخر لحظة كما نفعل أحيانا في العطل.. قبل أن أستسلم له شيئا فشيئا.. أعشق الطريقة التي أنام بها.. بالتدريج وببطء.. ثم غرق تام في سبات عميق مع الضوء المنبعث من التلفزيون الذي لا أنام من دونه كما ذكرت.

كان من المفترض ألا أصحو قبل التاسعة صباحا.. لكن ذلك الوميض الذي ضرب وجهي أيقظني

بشكل مفاجئ.. فتحت عيني لأكتشف أن هناك مشهدا لفيلم حربي يبث على التلفزيون حيث يحدث في إحدى لقطاته انفجار هائل يضيء الشاشة بأكملها.. المهم أنني صحوت فجأة وبشيء من التكاسل على أن أعود سريعا إلى عالم الأحلام.. لكني لم أفعل.. لأنني.. لأنني.. في الثانية التي عدت فيها إلى عالم الواقع.. حسنا.. لا أعرف كيف أصف ذلك المشهد الرهيب.. أرجوكم لا تظنوا أنني أصبت بالخَرَف أنا الأخرى!!!.

لقد كان يقف بالقرب من فراشي 3 أشخاص.. رجل يرتدي الزي الكويتي القديم.. مع فتاة تشبهني كثيرا.. وامرأة كبيرة في السن ترتدي العباءة.. ما الذي يفعله هؤلاء في غرفتي؟!.. لا شيء.. إنهم يقفون حول فراشي بهدوء شديد ويحدقون بي.. ثم.. يسيرون في الغرفة وكأنهم يمارسون حياتهم الطبيعية دون صوت وبلا أدنى اكتراث لوجودي!!!.

لا أحتاج إلى ذكاء لأعرف أن هؤلاء الأشخاص هم في واقع الأمر تماثيل موجودة في المتحف وقد دبت فيها الحياة فجأة!!!!.. هل قفلت باب غرفتي؟!.. نعم.. إنني أفعل هذا يوميا.. فكيف دخلوا؟ !!.. لكن.. لا أعتقد أن تمثالا تدب فيه الحياة ليتحرك كيفما شاء متحديا كل قوانين الكون سيكون عاجزا عن دخول غرفة مقفولة بالمفتاح!!!.

قد يسألني أحدكم عن مشاعري حينها.. يجب أن أذكر أولا أنني كنت دوما من النوع المتزن.. ولست من هؤلاء الذين يتجهون إلى الأمور الميتافيزيقية حال مشاهدتهم لشيء غير مألوف.. وقد تعلمت الكثير في الغربة حين عشت هناك معتمدة على نفسي.. وعرفت أن الخوف ليس حقيقيا أبدا.. إنه فقط نتاج أفكارنا.. مهلا.. لا تخطئوا فهمي.. الخطر قد يكون حقيقيا.. أما الخوف فمجرد اختيار!!!.. لكن ما رأيته كان ينسف كل المبادئ وربما سأحتاج إلى (دوستويفسكي) ([13]) نفسه لمحاولة ترجمة مشاعري بدقة لكم!!.

لقد ابتلعت لساني حتى بت عاجزة عن الصراخ.. لكن يبدو أن الصمت أسوأ أنواع الصراخ!!!.. إلا أنني في النهاية عدت إلى رشدي.. والعودة إلى الرشد تعني أنني شهقت بقوة وأنا أنهض من فراشي بهلع وأدير المفتاح في قفل الباب لأفتحه بسرعة.. وكانت تلك اللحظة تحديدا الأسوأ بكل تأكيد.. خاصة مع عقل مصاب بشلل تام بسبب الرعب.. أتذكر أنني وضعت يدي الأخرى على رأسي وكأنني أتجنب اعتداء تلك الأشياء علي من الخلف.

فتحت الباب سريعا متجهة إلى الطابق الأرضي.. ولا أعرف لماذا طرأ في ذهني ما كنت أفعله في طفولتي حين كنت أطفئ إضاءة الطابق الأرضي وأصعد الدرج بسرعة إلى الطابق الثاني خوفا من الأشباح.. لم أكن أتصور للحظة أنني سأعيش موقفا كهذا وأن يكون الخوف معكوسا هذه المرة فأهرب إلى الطابق الأرضي!!!.

أقفز قفزا على درجات السلم هاربة من غرفتي مستنجدة بالممرض.. هل كانت تلك الأشياء تتبعني؟ !!.. لا أعلم ولم أفكر بذلك.. كل ما كنت أريده الخروج من غرفتي بأسرع ما يمكن.. لأصل إلى غرفة جدي أخيرا وأفتح بابها بسرعة وبطريقة جعلت الممرض ينتفض من فراشه مستفسرا عما دهاني وآثار النوم واضحة على وجهه!!!.. أشرت له بيدي وأنا أتحدث بسرعة وبكلمات مبعثرة لأقول:

-التماثيل.. وحوش.. أشياء مخيفة.. غرفتي!!!.

لم يحتج إلى المزيد من الشرح لأن كلماتي هذه كانت تفسر كل شيء.. ويبدو أنه فهمني بالفعل مع نظرات الرعب التي بدت على وجهي الشاحب!!!.. إذ تصلب بدوره في مكانه وبدأت الأدعية

والآيات القرآنية تخرج من لسانه بسرعة حتى تكاد لا تفهم شيئا مما يقوله.. وفي أثناء ذلك.. ألقيت نظرة عابرة حاقدة على جدي ووجدته نائما بسلام لا يعي ما حدث لي للتو.. حتى إنني تمنيت له الموت فورا!!!.. فهو مسؤول عمّا يحدث هنا دون شك.. بشكل أو بآخر.. المهم أنني استدرت مرة أخرى سريعا لأقفل باب الغرفة وأدير المفتاح مرتين لأتأكد أن تلك الأشياء لن تدخل هنا.. بالطبع هذا تصرف سخيف.. فغرفتي كانت مقفولة أيضا ولم تمنع التماثيل من الوصول إلي.. لكنه تصرف تلقائي فعلته من دون تفكير.

دقائق طويلة وكل منا يقف في مكانه يحاول التقاط أنفاسه والسيطرة على أعصابه.. أنظر إلى الساعة لأجدها تتجاوز الثالثة فجرا بقليل.. لا.. لن أبقى في هذا البيت مرة أخرى.. سأرحل من هنا غدا.. سأحتمل أن أكون ضيفة ثقيلة على شقيقي وأسرته.. سأحتمل ابنته وعجرفة زوجته.. سأحتمل كل شيء.. فهذا أفضل من أن تحوم تلك الأشياء المخيفة في كل مكان حولي.. و.. في أثناء ذلك.. سألني الممرض فجأة:

-ما الذي حدث بالضبط؟!!.

قلت بأسنان تصطك وجسد يرتجف:

- الت.. الت.. التماثيل.. لقد تجسدت فيها الحياة وجاءت إلى غرفتي.. استيقظت من النوم لأجدها تحوم حول فراشي!!!.

سألني وهو يشهق:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. بسم الله الرحمن الرحيم.. هل تصدقينني الآن؟!.. هل تصدقينني؟!!!.

ليس هذا وقت كسب التحدي أيها الأحمق.. أقول ذلك في قرارة نفسي وأنا أقرأ بدوري بعض الآيات القرآنية.. ليكمل الممرض بصدق:

-لن أكذبك بالطبع بعد ما رأيت بنفسي.. يبدو أن جدك لم يكن يهذي أبدا حين كان يتحدث إلي.. بل كان صادقا تماما ويعي ما يقول.. إنه رجل ملعون ساحر فعل في شبابه أشياء يقشعر لها البدن وقد تركها خلفه في هذا البيت.. ربما لعنة.. نعم.. لعنة تركها نائمة سنوات طويلة.. وقد أيقظناها عند اكتشافك لذلك المتحف!!!!.

عزيزي القارئ.. أنا لا أصدق هذه الخرافات أبدا وأكرهها بشدة.. بل وأكره كثيرا أفلام الرعب التي كررت تلك الثيمة لدرجة القتل.. شخص يدخل بيتا أول مرة -كحالي أنا-وبسبب فضوله الشديد يوقظ لعنة ما.. حسنا.. أولا.. لا يوجد شيء اسمه (لعنة).. ولا يوجد أي تعريف علمي لكلمة (لعنة) أصلا.. ثانيا.. نعم سمعت عن سحر (النكرومانسي) الذي أشيع أن جدي كان يمارسه.. وقرأت عنه قليلا.. لكني لا أصدق هذا الهراء.. فلو كان جدي يمتلك تلك القدرات الخارقة لاستغلها ليصبح أكثر رجال الأرض نفوذا وثراء.. لا.. لا.. هذه خزعبلات لن أقبلها أبدا رغم وجود كل ما يدعوني إلى تصديقها بعد ما رأيته بعيني!!!.

التقطت أنفاسا عميقة مع مشاعري المتضاربة تلك.. وقد تطلب الأمر بعض الوقت لأهدأ.. قبل أن أجلس على الأرض وأنا أنظر في الفراغ إلى أن انتظمت دقات قلبي وبدأت بالسيطرة على نفسي.. نعم.. سبق وأن ذكرت أنني أشجع من الكثير من الفتيات.. ولا أنسى ذلك الموقف الذي تعرضت له أيام الدراسة.. حين استيقظت يوما من فراشي على صوت جلبة حدثت فجأة في غرفتي.. فتجمدت في مكاني طوال ساعات الليل ظنا أن هناك لصا قد اقتحم شقتي.. لكنني في الصباح اكتشفت أن ما حدث في واقع الأمر هو لوحة لسيدة الغناء (أم كلثوم) كنت قد علقتها على جدار غرفتي بواسطة غراء وقد سقطت على الأرض بعد أن جف الغراء وفقد قوته!!!.. لكن ساعات الرعب التي عشتها ليلتها كانت لا تصدق.. ظنا مني أنني يجب أن أتظاهر بالنوم حتى لا يشعر اللص باستيقاظي وربما يقتلني مثلا.

المهم أنني بعد دقائق من الهدوء.. تذكرت نقطة بديهية ومنطقية للغاية لا تقبل الجدل.. لكن يجب التأكد منها رغم كل شيء.. هذه التماثيل التي ظهرت في غرفتي.. من المفترض ألا تكون موجودة الآن في غرفة المتحف.. أليس كذلك؟!.. حسنا.. أريد أن أرى ذلك بنفسي.. لماذا؟!.. لا أعلم.. لأنني أريد أن أتأكد فحسب.. لا أتخيل منظر تلك الغرفة دون تماثيل.. قد يكون ما رأيناه مجرد أشخاص استعان بهم أحدهم ليخيفنا.. أعلم أنه احتمال سخيف وواه.. لكن التأكد لن يضر أحدا.. التفت بسرعة لأطلب من الممرض أن يأتي معي.. لن أذهب إلى هناك وحيدة.. يبدو واضحا أنه متردد وخائف أكثر مني.. وربما على وشك الاعتذار.. لكن.. ربما شعر بشيء من العار أن تكون فتاة في عمر ابنته أشجع منه.. إذ امتثل لطلبي خجلا ونهض بتثاقل!!!.

خرجنا معا من غرفة جدي وكل منا يرتدي بيجامة النوم.. فقواعد اللياقة آخر ما يفكر به المرء في لحظات الرعب.. لكن بيجامتي كانت تسترني جيدا لحسن الحظ.. مشينا بخطوات مرتجفة ونحن نلتفت حولنا دون أن نجد أي شيء غير عادي في الصالة بعد أن أضأنا كل أنوارها.. وقد شعرت للحظة أن الممرض أصدق أصدقائي في هذا العالم.. فلا يوجد ما يجمع الناس أكثر من عدو مشترك.. لكن.. ما هو هذا العدو أصلا؟!!.

ذهبنا إلى المتحف اللعين.. و.. الغرفة تحوي تمثالين فقط!!!.. هناك 3 تماثيل مفقودة.. لا أذكر

كم من الوقت بقيت مصدومة رغم أنني رأيت ما هو متوقع أصلا.. أنظر ناحية الممرض مستفهمة وبوجه شاحب خلت منه الدماء.. إنه أيضا في حالة يرثى لها.. العرق يتصبب منه بغزارة.. نظراته زائغة.. هذا غير معقول.. أنا لم أقرأ في حياتي قصصا للأشباح.. لكن كل ما سمعته عنها يتعلق ب(الرعب الموحي) المرتبط دوما بالخداع البصري.. فدائما تكون مشاهدات الأشباح من طرف العين.. مما يوحي بخطأ في تفسير ما رأيناه أو ربما خلل في الدماغ.. فأنت تظن أنك رأيت شبحا بطرف عينيك.. لكن حين تلتفت إليه لا تجد شيئا.. وهكذا.. أما الصور الفوتوغرافية فدائما ما تكون خدّاعة وأغلبها تم كشف زيفها بالفعل واتضح أنها ليست سوى تزوير من أناس يبحثون عن الشهرة والمجد.

لكن أن تعيش لحظات الرعب هكذا بكل وضوح وبصورة لا تخضع لأي شك؟!.. فهذا ما لا أفهمه.. إذ لم يحدث أبدا أن رأينا مواجهة خالصة صريحة بين إنسان وشبح.. إن ما يحدث هو نوع من الفانتازيا التي لا يمكن أن نراها في عالم الواقع.. لكنها تحدث!!!.. التماثيل ليست موجودة.. لقد دبت فيها الحياة فجأة وباتت طليقة تجول في البيت بهدوء.. كلام مضحك؟!.. قصص أطفال؟!.. كلامي يذكركم بذلك الفيلم السخيف (ليلة في المتحف) (A Night in The Museum) ؟!.. بكل تأكيد هذا ما سيتبادر إلى أذهانكم.. لكن.. أرجوكم واصلوا القراءة إلى النهاية.. لن تكون القصة أبدا كما تتخيلونها.

ثم.. تذكرت شيئا آخر.. الخادمة.. أشرت للممرض أن يتبعني.. فمشينا بخطوات سريعة لنعبر المطبخ ونصل إلى غرفتها.. طرقنا بابها بتوتر.. مرة.. مرتين.. فتحت الباب وهي تنظر إلينا بوجه منتفخ وعينين ناعستين قلقتين بمزيج غريب.. سألتها بتوجس:

-هل أنت بخير؟!.. هل كل شيء على ما يرام؟!.

هزت رأسها إيجابا باستغراب لهذا السؤال السخيف الذي أوقظتها من النوم لأطرحه عليها.. فطلبت منها أن تعود إلى فراشها وألا تقلق من شيء.. حاولت أن تستفهم لكني لم أترك لها المجال.. إذ استدرت سريعا وأنا أقول للممرض بصوت هامس حرصت ألا تسمعه الخادمة:

-يجب الاتصال بالشرطة.. لا أعرف ما الذي سيفعلونه.. لكن لا بد من ذلك!!!.. لن نخبرهم أن هناك تماثيل تتحرك بالطبع.. بل سنقول لهم إن أحدهم قد اقتحم البيت.. وحين يأتون.. سنجعلهم يرون كل شيء بأعينهم.. سيكون هذا أبلغ دليل.

قال بذعر وكأنني أوقعته في مأزق:

-لا.. أرجوك.. لا أريد أن أقحم نفسي مع الشرطة.. لا أريد التورط بأي مشاكل!!!.. تستطيعين الاتصال بهم إن أردت.. لكني لم أرَ شيئا ولم أخرج من غرفة جدك إطلاقا.. هذا ما سأقوله لهم!!!!.

أطبقت على شفتي بحنق.. كلامي للشرطة لن يعني شيئا في هذه الحالة.. خاصة إذا عادت التماثيل إلى مكانها قبل وصولهم؟!.. ولن تكون هذه المشكلة الوحيدة.. فكما ذكرت سابقا.. ربما ستثير التماثيل فضولهم.. وقد يفحصونها ويعثرون داخلها على بقايا الجثث التي قتلها جدي.. سأفتح حينها ملفات قديمة عانت عائلتنا كثيرا لوضعها في طي النسيان.

أما التخلص من هذه التماثيل فيعني أننا نتستر على جريمة حتى وإن حدثت منذ زمن بعيد.. إنني أتحدث عن الفضيحة والتحقيقات التي ستجري وتجر عائلتنا بأكملها ربما إلى المخافر لفترة

ليست بالقصيرة.. كما أن بقاءها في مكانها شبيه بالقنبلة الموقوتة التي لا أعلم كيف ستنفجر.. وهو يعد أيضا تسترا على جريمة.. أي أننا بين نارين!!!.

أزفر بقوة محاولة أن أستجمع أفكاري.. لأقول:

-يجب أن تمر هذه الليلة على خير أولا.. لا أعلم كيف سننام.. سنبقى في غرفة جدي إلى أن يحين الصباح.. ثم سأتصل بشقيقي حال استيقاظه.. ولنرى ما الذي سيقترحه.

هز كتفيه أن كلامي لا بأس به.. فاتجهنا معا عائدين إلى غرفة جدي ليجلس كل منا في ركن وقد بدا لي أننا نعيش ليلتنا في بعد آخر وعالم آخر مجهول!!!.. ولو ظهرت لنا التماثيل هنا أيضا لا قدر الله فسنخرج من البيت ولن نبقى فيه لحظة واحدة.

أنظر إلى الساعة الموجودة في الغرفة.. إنها تتجاوز الرابعة فجرا.. نحن في مأزق حقيقي.. الممرض يقطع الصمت ليقول بتوتر شديد:

-لا أستطيع أن أمنع نفسي عن الارتجاف حين أتذكر ما رأيته بعيني.. هذا البيت.. هذا البيت.. بسم الله الرحمن الرحيم!!.. بسم الله الرحمن الرحيم!!.

وكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) تلخص الموقف بأكمله.. ثم:

-حسنا فعلتِ حين أخفيت الأمر عن الخادمة.. لا تخبريها بشيء أرجوك.. دعيها نائمة بسلام.. الجهل نعمة!!!.

لم أرد عليه.. بل قلت بصوت هامس وأنا أنظر لجدي ببغض:

-هناك أمور غريبة تحدث هنا!!!.

بدا كلامي مبتذلا سخيفا للغاية.. وكأن هناك زلزالا يضرب المكان بأكمله.. ليأتي شخص ويقول بذكاء:

-أنظروا.. الزلزال يضرب منطقتنا.

لكن الممرض لم يسخر مني لحسن الحظ.. بل قال بصوت مرتفع نسبيا:

-فلتتحدثي بطريقة طبيعية إن أردت.. إن عقل جدك غائب عن عالمنا كما تعلمين ولن يسمعنا.

أعلم ذلك.. لكن رهبة المكان والرعب الذي يخيم علينا جعلني أتكلم بخفوت رغما عني.. استجمعت حبالي الصوتية وقلت:

-كنت أريد أن أسألك.. كيف تفسر ما حدث؟!.. هل تظن أن التماثيل لا تزال تجول في غرفتي؟!.. أو ربما في كل أنحاء البيت؟!.

أومأ برأسه وهو يقول بصوت لا يقل ارتجافا عن صوتي:

- كيف سأفسر المستحيل يا ابنتي؟ !!.. هناك جانب إيجابي واحد لكل ما حدث.. وهو أنك تصدقينني الآن ولا تظنينني مجنونا أو مخرّفا.

خرست تماما.. بالطبع هو محق.. لقد كنت أحتاج الدليل لأصدق قصته المستحيلة هذه.. وها قد رأيت الدليل واضحا.. وضعت يدي لأمسح على شعري القصير.. ثم غمغمت باعتذار:

-إن ما قلته لي أمس لا يصدق.. ولو أخبرتك بقصة شبيهة لما صدقتني!!!.. لكنك عموما لم

تجب.. هل تعتقد أن التماثيل لا تزال في غرفتي؟!!.

مط شفتيه بحنق وهو يقول:

-وكيف لي أن أعلم.. لن يهمني بعد الآن ما سيحدث هنا.. فربما قد حان الوقت لأنهي خدماتي في (الكويت).. لقد جمعت مبلغا كافيا من المال طوال السنوات الماضية لأعيش حياة كريمة في بلدي.. سأحتاج أسابيع قليلة لأحسم بعض الأمور وأنهي إجراءاتي مع الشركة حتى أترك البلد نهائيا.. فما رأيته هنا يجعلني أكره هذا البيت مع جدك اللعين إلى الأبد.

تجاوزت عن وصفه جدي ب.(اللعين) لأقول:

-تستطيع العمل في بيت آخر.. لماذا هذا القرار المتسرع؟!.

رد دون أن ينظر إلي:

-المعذرة.. لكن الإقامة هنا كانت سهلة جدا.. كنت سيّد هذا البيت.. أتصرف وكأنه ملكي.. لم يكن هناك أحد يملي علي أوامره.. ولا أعرف إلى أي بيت ستذهب بي الشركة إذا طلبْت نقلي.. الأفضل أن أعود إلى بلدي.. لقد كبرت وربما جاءت هذه الحادثة لتذكرني أن علي العودة يوما ما وأن هذه العودة قد حانت أخيرا.

لم أرد على كلامه.. فليذهب إلى حيث شاء.. لماذا أهتم أصلا؟!.. المشكلة الآن متعلقة بي.. أين سأذهب أنا؟!.. لا أستطيع الإقامة هنا بعد ما رأيته بكل تأكيد.. ولو بقيت فإن أياما عصيبة تنتظرني.. هل أذهب لأقيم في بيت أحد أشقائي كما كنت أُقسم قبل قليل؟!.. لا.. بعد أن هدأت قليلا أقول إن هذا مستحيل.. لم يدعوني أحد منهم للإقامة عنده سوى شقيقي الأكبر الذي خرجت من بيته بعد مشاحنات كثيرة كما تعلمون.. وحتى لو تجرأت وطلبت من أحد أشقائي أن يستضيفني.. فأنا أعلم أن أحدا منهم لا يملك غرفة لي أصلا.. ولا أريد أن أقيم مع أبنائهم.

اللعنة.. ليتني لم أقبل ببيع بيت أبي -رحمه الله-إنني أدفع ثمن ذلك الآن.. إنه البيت الذي عشت فيه طوال حياتي.. كان بإمكاني أن أرفض بيعه وأن أطلب من أحد أشقائي أن يقوم بتأجير بيته مثلا ويأتي للإقامة معي في بيت أبي.. فعندها لن يجرؤ أحد على التأفف من وجودي.. كيف لم أفكر بذلك سوى الآن؟ !!.. كيييييف؟!!!.. ماذا عن الوظيفة؟!.. متى سأحصل عليها؟ !!.. العشرات غيري ينتظرون.. لا أعتقد أن هذا سيحدث قبل 6 شهور من الآن وربما أكثر.. والإقامة هنا باتت مستحيلة أيضا.. لن أحتمل النوم في هذا البيت بعد ما حدث.. ما العمل إذا؟!!.

جلسنا طويلا وكل منا غارق في خواطره يحدق في مكان ما.. الساعة تقترب من السادسة فجرا ولا يوجد أي أثر للنعاس علينا.. فالخوف أنسانا كل شيء.. ثم.. خطر بذهني أمر ما.. فقلت للممرض:

-علينا الذهاب إلى المتحف لمعرفة إن كانت التماثيل لا تزال تسرح في غرفتي أو أنها عادت إلى مكانها!!!.

كان بإمكانه الاعتذار بعد كلامه عن العودة إلى بلده.. لكني فوجئت به ينهض ويمشي نحوي بتردد!!!.. فنهضت بدوري لأمسك بالمقبض وأفتح الباب ببطء شديد.. خرجنا معا ونحن نتلفت حولنا بتوتر هائل.. نمشي بعدها ناحية المتحف.. ندفع الباب الموارب ببطء ليتسلل نور الصالة ويغمر الغرفة بالكامل.. ل.. ل.. نتصلب في أماكننا للمرة الألف!!!.. أشرت بيدي دون أن أتمكن من النطق.. ولم يكن هناك داع لأشير إلى أي شيء.. فهو يرى ما أراه أيضا.. لقد عادت التماثيل إلى

مكانها كحال أي تماثيل تحترم نفسها!!!.

لا أدري لماذا تدفقت مشاعر الاطمئنان إلى قلبي فجأة.. الأمر شبيه بأن يختفي صرصور عن أنظارك فتقلق من أن يتسلل إليك في أثناء نومك.. وتظل تبحث عنه دون أن يهدأ لك بال.. إلى أن تعثر عليه أخيرا فتشعر بالاطمئنان رغم بشاعة منظره!!!.. كان هذا شعوري تحديدا.. ويبدو أنه شعور الممرض كذلك.. إذ نظر إلي بشيء من الارتياح.. ثم قال:

-لدي قفل بين أمتعتي.. انتظري قليلا.. سنغلق هذا الباب إلى الأبد.

قالها وهرع إلى الداخل دون أن ينتظر ردة فعلي.. لا أعرف جدوى ذلك.. لحظات قليلة ذهب فيها وتركني بمفردي.. ليعود مسرعا وهو يحمل بيده قفلا صغيرا من تلك الأقفال التي تستخدم للحقائب.. ثم راح يبحث عن حلقة في مقبض الباب المكسور ليغلق دائرة القفل.. قبل أن ينتهي أخيرا من عمله وهو ينظر إلى الباب بانتصار.. أما أنا فقد كنت أنظر إليه بيأس عالمة أن ما يفعله لا جدوى منه على الإطلاق!!!!.

عدنا مرة أخرى إلى غرفة جدي.. أنتظر استيقاظ شقيقي لأتصل به.. أحتاج أن أسمع رأيه بما يحدث.. سيصدقنا دون شك.. ولنرَ ما الذي سيقترحه.. الممرض ينهض من مكانه ويذهب ليفتح علبة حافظة تحوي بعض الفواكه المقطعة.. ثم يتجه ناحية جدي ليطعمه بالملعقة وبطريقة آلية.. أحدق بهذا المشهد وأنا أتخيل كل تفاصيل عملية البلع الفسيولوجية.. هنا خطرت في ذهني فكرة بديهية للغاية لا أعرف كيف غابت عني.. ربما لن تجدي لكن لن أخسر شيئا من تجربتها.. أحتاج.. أحتاج أن أجلس مع جدي وأتحدث إليه.. أعلم أن هذا مستحيل.. لكن الأمر يستحق التجربة.. تنحنحت وطلبت من الممرض أن يخرج لأنني أريد أن أخاطب جدي على انفراد!!!.. نظر إلي مستغربا.. لكني لم أقدم له أي إيضاح.. بل طلبت منه الخروج فحسب.. ليقول بحيرة:

-لن يفيد هذا بشيء.. إنه لا يتفاعل مع أحد على الإطلاق.. لقد توقف عن الحديث والاستجابة منذ سنوات طويلة كما قلت لك سابقا!!!.

رددت بحزم:

-اتركني مع جدي لو سمحت!!!.

وضع الطبق على المنضدة.. ثم نهض من مكانه غير راضٍ كما يبدو.. ما إن خرج حتى اقتربت من جدي بتوجس.. ورحت أتأمل ملامحه بمزيج غريب من الكراهية والشفقة.. لكن يبدو أن الشفقة كان لها الدور الأكبر وأنا أرى كل هذا البؤس بعد أن لعبت صلة القرابة دورها.. كان مظهره مزريا.. حزينا.. يمثل كل التعاسة في الدنيا.. رجل في منتصف الثمانينات.. مصاب ب(آلزهايمر).. لا يهتم لأمره أحد من أحفاده بعد أن قاطعه الجميع ونبذه المجتمع منذ طفولته تقريبا.. لا أعرف من الذي دله على طريق الشيطان وجعله يمارس السحر ويصبح قاتلا.. ما السر الذي تحمله يا جدي؟!!.

قلت له بحزن هامس:

-جدي؟!.. إنني لم أنادِك بهذه الكلمة في حياتي.. بل ولم أتحدث إليك أصلا من قبل.. يا إلهي.. الأمر غريب بحق.. كيف.. كيف حالك؟!.. هذه أنا.. حفيدتك (صغيرة).. إنني أعيش معك الآن في بيتك.. أرجوك حاول أن تستجمع أفكارك.. هل تستطيع أن ترد علي؟!.. أرجوك حاول.. حاول!!!.

تجاهل تام طبعا وكأنني لست موجودة.. أكملت بصعوبة وبعينين مغرورقتين بالدموع:

-إنني أرى أشياء غريبة تحدث في بيتك.. ما سر الغرفة الموجودة في بئر السلم؟!.. ما سر التماثيل الموجودة فيها؟!.. أرجوك أخبرني.. لماذا صنعت تمثالا يجسدني أصلا؟!.. وهل التمثال يجسدني أنا بالفعل؟!.. أم يجسد جدتي كما أتوقع؟ !!.. هل كانت جدتي تشبهني إلى هذه الدرجة؟!.. وهل.. هل قتلت جدتي؟!.. هل قتلت أحدا من قبل كما قال أبي؟!!!.. لماذا تحيط حياتك بكل هذا الغموض؟!!.

لا يرد ولا يبدي أي استجابة طبعا.. حاولت أن أتحدث ببطء أكثر.. أن أوصل كلماتي إلى قلبه.. لكن دون جدوى.. زفرت بقوة محاولة أن أصفّي ذهني وأن أمنع دمعة كانت على وشك النزول.. ثم ناديت الممرض بصوت مرتفع ليدخل.. يبدو أنه كان ملتصقا بالباب.. إذ دخل سريعا وكأنه يخشى البقاء وحيدا في الخارج.. ولم يحاول أن يعرف إن كان جدي قد تجاوب معي.. يبدو أنه كان واثقا أن محاولتي ستفشل.. أو ربما لا يكترث بالفعل وقد قرر أن يترك هذا البيت قريبا على حد قوله.

و.. الساعة تتجاوز السابعة صباحا بقليل.. حسنا.. إنه الوقت المناسب.. اتصلت بشقيقي أخيرا.. لحسن الحظ كان قد استيقظ للتو.. فأخبرته بما حدث بالتفصيل شاعرة بشيء من الإرهاق والأرق بنفس الوقت.. لن أضيع وقتكم في وصف مرحلة الذهول والتكذيب وعدم اقتناعه بما حدث.. هذا أمر مفروغ منه.. بل إنه ظل لآخر لحظة يشك في أن ما حدث حلم أو أن الظلام قد سبب لي بعض التهيؤات.. لكني أخبرته بإصرار أن الممرض رأى كل شيء بنفسه وأننا قضينا ليلة عصيبة لم أصعد فيها إلى غرفتي منذ هروبي منها.

كانت المكالمة طويلة عبارة عن شد وجذب استمر لأكثر من ساعة دون أن ينتهي إلى نتيجة واضحة.. شقيقي مصدوم يكاد لا يصدق ما قلته له.. لكنه وبالوقت نفسه لا يستغرب أي شيء بعد كل ما سمعناه عن جدي وعن حماقاته التي مارسها في شبابه.. لم تكن هذه المشكلة بكل تأكيد.. بل كانت حين تحدثت معه عن خوفي من الإقامة في هذا البيت الملعون بعد كل ما رأيت.. فقد بدا من طريقة حديثه أنه ليس متحمسا كثيرا أن أعود لأقيم عنده مرة أخرى.. لكنه اقترح بالمقابل أن أبلغ الشرطة.. حذّرته بما قد يعود علينا ذلك من مشاكل ذكرتها لكم في سياق الأحداث.. فسكت ولم يرد!!!.

أنهيت المكالمة وقد شعرت أنني ضائعة تماما.. لم أستفد شيئا سوى محاولاتي الخرقاء لإقناعه بما حدث.. الغريب أنني وضعت كرامتي جانبا ولم أجد بدا من كشف السر والاتصال بأفراد الأسرة واحدا تلو الآخر لأخبرهم وأقنعهم بحقيقة ما رأيته في هذا البيت أولا ولأطلب منهم الانتقال والسكن عند أحدهم فترة مؤقتة.. لم يكن سهلا إقناعهم بما يحدث في بيت جدنا بالطبع.. فبعضهم صدقني بعد محاولات إقناع عسيرة.. والبعض ظل مقتنعا أن هناك خدعة ما.. لم يكن هذا المهم.. بل أن أحاول فرض نفسي عليهم ليستضيفني أحدهم في بيته.

المشكلة أن جميعهم تقريبا تهربوا من استضافتي عندهم واكتفوا بطلب قراءتي لآيات قرآنية والبسملة.. سوى أحد أشقائي الذي أخبرني أنني أستطيع البقاء عنده بضعة أيام فحسب.. بضعة أيام؟ !!.. تخيلوا هذا.. ما الذي سيحدث بعد ذلك؟!.. سأعود إلى هذا البيت الملعون مرة أخرى بالطبع!!!.. لا.. هذا ليس حلا على الإطلاق.. الأمر واضح إذا.. أنا وحيدة الآن.. كدت أن أهين نفسي أكثر وأكثر وأتوسل إليهم أن يستضيفوني عندهم.. لكني لم أفعل.. شيء ما جعلني أقرر الانتظار فجأة.. حافز خفي أجهله!!!.

أحاول طمأنة نفسي بهذا الكلام وقد قررت الخروج من البيت للجلوس في أحد الكافيهات وربما الذهاب إلى السينما لقتل الوقت على أن أعود قبل الليل وأنام مبكرا بعد سهرة الرعب التي أبقتني مستيقظة حتى الآن.. لا أريد أن أفسد نظام نومي.. سيكون الأمر مزعجا لو نمت الآن واستيقظت ليلا.. وربما علي أن أجلب كهربائيا ليصلح كل الإضاءات المعطلة في البيت.. حتى إضاءة ساحة البيت الداخلية.. فالظلام يعني المجهول.. يعني الخوف.. وأنا لا أريد ركنا مظلما هنا.

المهم أن اليوم مر بسلام.. فعُدت قبل المساء منهكة متعبة بسبب قلة النوم.. لكني كنت واثقة في قرارة نفسي أن قصة غريبة كهذه لا يمكن أن تمر مرور الكرام دون تطورات.. رغم أنني علمت من الممرض أن شيئا مريبا لم يحدث أثناء غيابي.. وقد كانت توقعاتي في محلها.. ففي اليوم التالي قضيت بعض الوقت في غرفة جدي.. أحاول مرة أخرى أن أتحدث إليه رغم علمي بعدم جدوى ذلك.. إلى أن شعرت بالملل في النهاية.. لأخرج متجهة إلى الطابق العلوي حيث غرفتي.. ولا أنسى كيف كنت أختلس النظر إلى باب ذلك المتحف وأنا أنظر بيأس إلى القفل الصغير الذي وضعه الممرض.. عالمة أن المرء لا يستطيع أن يفعل شيئا ماديا ليمنع شيئا غير مادي من الوصول إليه!!!.

جلست في غرفتي قليلا ثم ذهبت إلى الحمام للاغتسال وقضاء بعض الوقت في غرفتي قبل النوم.. لكن.. تصلبت في مكاني عند عتبة الباب وأصبت بتلك القشعريرة التي باتت تصيبني مؤخرا!!!.. هذا كثير.. لن أحتمل ما أراه.. من هذا العجوز الذي يجلس خارج غرفتي؟؟؟!!.. لا.. إنه ليس جدي.. بل أحد التماثيل التي كانت موجودة في المتحف وقد تجسد وتحرك من مكانه ليأتي إلى هنا!!!!.. وكأنه يؤدي دورا في مسلسل كويتي تراثي بذلك الزي الوطني القديم وقد زادته لمسات الماكياج بؤسا وشقاء!!!.. هل كان المنظر مخيفا؟!.. كل رجل عجوز يكون منظره مخيفا للغاية حين تجده فجأة في بيتك القديم.. خاصة إذا كان شبحا لتمثال إن صح التعبير!!!.. لن أصف مشاعر الرعب مرة أخرى كي لا أصيبكم بالملل.. سأكتفي بالقول إنني بذلت جهدا خارقا كي لا أصرخ.. أحاول أن أسيطر على أعصابي وأقول بصوت خرج مبحوحا خافتا:

-م.. م.. ماذا تريد مني؟!!.

لم يلتفت إلي إطلاقا.. أمر غريب بحق.. فهذا العجوز لا يمكن أن يكون بشريا.. لكنه -وفي الوقت نفسه-أشعرني بشفقة حادة تجاهه.. هل يعقل أن تشعر بالشفقة تجاه شبح؟ !!.. كان ينظر إلي بضياع.. وحزن.. وكأن نظراته الحزينة تخترقني وتؤلمني.. ثم.. غاب عن بصري فجأة وكأنه لم يكن!!!.. تماما كما تختفي الأشباح.. عدت مرة أخرى إلى غرفتي وجسدي ينتفض بأكمله وقد نسيت أمر ذهابي إلى الحمام.. فما يحدث في هذا البيت أمر خارق.. أمر لا يصدق.. كل شيء يزداد غموضا في كل لحظة.. ما الذي سأفعله؟!.. إلى متى سأنتظر؟ !!.. هل يعقل أن يحدث كل هذا في يومين فقط؟ !!.. فكرت للحظة بالنزول إلى الطابق الأسفل والبقاء مع الممرض في غرفة جدي.. هذا لن يجدي.. فلن أنام في الغرفة بوجود رجل غريب مهما كانت مخاوفي.. لذا طرحت الفكرة جانبا وحاولت أن أتماسك.. ثم رفعت سماعة هاتفي لأتصل بالخادمة الموجودة في غرفتها.. نعم.. لقد حصلت منها على رقم هاتفها النقال منذ يوم انتقالي للإقامة هنا علني أحتاجها.. و:

-أريدك أن تأتي لتنامي في غرفتي!!!.

كنت أبحث عن طريقة تشعرني بالأمان.. ولم أجد سوى الصحبة الآدمية.. بالطبع استغربت

الخادمة كثيرا لطلبي هذا.. واستغربت أكثر لأنني اتصلت بها هاتفيا بدلا من النزول إلى غرفتها ومحادثتها مباشرة.. فهي لا تعرف شيئا حتى الآن مما يدور في هذا البيت وتجهل أنني أخشى ترك غرفتي رغم أنني تركت إضاءات الصالة كلها تعمل في الطابق الأسفل!!!.. المهم أنها نفذت أوامري دون نقاش بسبب طريقتي الحازمة في الكلام.. ووجدتها بعد دقائق في غرفتي وهي تحمل بشيء من الصعوبة بطانية ومفرشا ووسادة.. فنهضت من فراشي لأساعدها وأنا أشير إلى بقعة محددة من غرفتي لتضع فراشها عليها.. ثم قلت دون أن أنظر إليها:

- ستنامين في غرفتي يوميا ولفترة ليست بالقصيرة.. ستظل كل احتياجاتك وثيابك في غرفتك.. لكنك ستأتين إلى غرفتي وقت النوم فقط!!!.

وكأنها تريد أن تسألني عن السبب.. لكني لم أمنحها الفرصة لذلك.. بل رحت أعبث في هاتفي بطريقة متعمدة.. ففهِمَت كما يبدو أنني لا أريد الخوض في الأمر.. لتجلس على فراشها الأرضي مستسلمة وتدس نفسها تحت اللحاف لتنام.. أما أنا فظللت أعبث في هاتفي بشرود وجهاز التلفزيون يعمل دون صوت والضوء المنبعث منه ينير الغرفة وإن كنت لا أشاهد منه شيئا.. النعاس الشديد يثقل جفوني كوني لم أنم جيدا منذ الأمس.. أنظر إلى الساعة في هاتفي لأجدها وقد تجاوزت العاشرة مساء بقليل.. فوضعت الهاتف بجانبي.. ثم نمت بشيء من الاطمئنان لوجود الصحبة الآدمية.

في الليلة نفسها كان هناك ذلك الحلم الغريب.. رجل أسود الملامح مخيف الشكل يرتكب جريمة قتل بوحشية!!!.. الغريب أن الضحية كانت رجلاً مبعثر الملامح إن صح التعبير!!!.. أعني لم تكن ملامحه واضحة.. وكأنه شخصية قام برسمها طفل.. فبدت مضحكة غير واقعية لكنها توحي أنها لرجل.. الأمر شبيه بمن يرسم دائرة ويضع في وسطها نقطتين وخط في المنتصف وأسفلها قوس صغير.. ستعرف فورا أنها لوجه آدمي لكنك تعرف أيضا أنه لا يوجد آدمي حقيقي بهذه الملامح!!!.

كان ذلك الرجل الأسود يرتكب الجريمة بقسوة وعنف.. والرجل ناقص الملامح -إن صح التعبير- يحاول مقاومته دون جدوى.. إلى أن أصبح جثة هامدة بين يديه.. الغريب أنني شعرت حينها بيد تهزني بعنف.. ففتحت عيني مذعورة وإذ بالخادمة تنظر إلي وهي تتحدث بكلمات مرتجفة باكية وصدرها يعلو ويهبط بوضوح:

- جريمة قتل.. جريمة قتل.. هل رأيت؟ !!.. انهضي أرجوك!!!.. ماذا يحدث هنا؟!.. من هؤلاء بالضبط؟!!.

عدت إلى عالم الواقع في جزء من الثانية وأنا لم أستوعب ما تقوله بعد.. فراحت تتحدث بكلمات مبعثرة يفوح الرعب من كل حرف منها حتى ظننتها ستصاب بسكتة قلبية وهي تقول:

-للتو.. للتو.. رجل ارتكب جريمة قتل.. رجل غريب أسود الملامح ظهر في غرفتك واختفى فجأة مع الضحية!!!!.

قفزت من مكاني وقد اتسعت عيناي على آخرهما لأشهق وأقول:

-يا إلهي.. يا إلهي.. لم.. لم.. لم أكن أحلم إذا!!!.. لقد كنت أظن أنني أحلم!!!.

بالفعل.. فوجودي في ذلك المكان الغامض بين النوم واليقظة جعلني أظن أن ما رأيته مجرد حلم.. دقات قلبي تتسارع وقد طار النوم تماما من عيني رغم الإرهاق الشديد.. لكني لم أجد الوقت

لأصرخ كحال أي أنثى.. فقد ظهر فجأة رجل وسيم الملامح يرتدي الزي الوطني القديم.. وأمامه تقف امرأة ترتدي ثيابا قديمة لكنها نظيفة للغاية.. كانا يتحدثان بكل رقة وحب.. يتحدثان إلى درجة الهمس حتى إنني لم أسمع حرفا من كلامهما.. ثم حملها الرجل فجأة ليدور بها كما يفعلون في الأفلام!!!.. ويحتضنها بعدها بحنان جارف.. مهلا.. يا لي من حمقاء.. الفتاة هي أنا!!!.. والشاب هو أحد التماثيل الموجودة في الأسفل!!!.

ظللت أنظر إلى ذلك المشهد مبهورة.. قبل أن يختفي الاثنان فجأة!!!.. الغريب أنني لم أشعر بأي خوف هذه المرة.. فما رأيته كان شيئا نقيا صافيا بمنتهى الروعة.. وكأنك شاهدت فيلم رعب منعك من النوم.. ثم لحقته بفيلم رومانسي جميل أنساك أجواء الرعب المسمومة.. وعندما يزول الرعب من عقل الإنسان.. يبدأ يفكر بمنطقية.. التماثيل.. التماثيل الموجودة في الطابق الأسفل!!!.

خرجت مسرعة من غرفتي متجهة إلى المتحف وقد واتتني شجاعة غريبة لم أكن أمتلكها منذ دقائق قليلة.. المفتاح لا يزال موجودا في قفل الغرفة.. يبدو أن الممرض نسي أخذه أمس بسبب التوتر الذي سيطر علينا.. فأدرت المفتاح وفتحت الباب.. لا يوجد سوى تمثال المرأة العجوز فقط.. تمثال الفتاة غير موجود.. والرجل الوسيم الذي يرتدي الزي الوطني غير موجود كذلك.. ماذا عن تمثال ذلك الرجل الأسود غليظ الملامح.. إنه غير موجود أيضا.. هو الذي رأيته للتو عندما ظننت أنني أحلم وهو يرتكب جريمة بشعة ضد شخص بلا ملامح تقريبا.. أو بملامح ناقصة.. لقد توقعت كل هذا.. لكن.. مهلا.. أين هو التمثال الرابع؟ !!.. تمثال العجوز الذي يشبه بثيابه شخصية (بو جسّوم) الشهيرة.. التفت حولي بقلق لأرى شخصا جالسا في الصالة أمام التلفزيون القديم.. التلفزيون لم يكن يعمل.. لكن التمثال يجلس بجمود وكأنه يشاهد شيئا هاما استحوذ على كل اهتمامه.. بالله عليكم كيف يحدث هذا؟!.. لم أزدرد لعابي لأن حلقي قد جف تماما وقد عاد الخوف إلى قلبي.. مشيت ببطء شديد لأقترب منه وأرى ملامحه.. أكره كثيرا تلك المشاهد في أفلام الرعب حين يعطيك أحدهم ظهره ولا يرد عليك عندما تناديه.. فتقترب منه إلى أن تكتشف وجهه.. وغالبا ما يكون مرعبا!!!.. يبدو أن هذا البيت بأكمله فيلم رعب تدور أحداثه على أرض الواقع.. و.. رأيت ملامحه دون أن تكون هناك أي صدمات جديدة.. إنه التمثال الرابع المفقود كما هو متوقع.. ها هو ينهض من مكانه.. وبشكل لا مبال إطلاقا يتجه إلى المتحف.. ليعود إلى حالته الطبيعية كتمثال!!!.

مهلا.. الخادمة.. أين هي.. وجدتها تقف عند درجات السلم منكمشة على نفسها وتغطي وجهها براحتي كفيها غير مصدقة.. إنها تقف هنا منذ مدة كما يبدو.. من المؤكد أنها لم تجرؤ على البقاء وحيدة في الغرفة حين تركتها.. فتبعتني.. عندها أعترف أنني فقدت تماسكي وبكيت.. نعم.. بكيت وانفجرت الدموع من عيني.. أنا لا أقوى على مواجهة كل هذا.. إنني أعيش تجربة تتحدى كل قوانين الكون.. حتى بت أتحدث بهمس غير مسموع والدموع تنهمر دون توقف:

-لماذا يا جدي؟!.. لماذا فعلت كل هذا؟!.. أي شيطان أنت؟!.. لماذا وصمت عائلتنا بلعنتك؟!.. لماذا تجعلني أعيش كل هذا التوتر؟!!.

أتذكر أنني أجهشت في البكاء وأنا أسمع الخادمة بدورها تبكي بحرقة وتضرب الحائط بيدها مفرغة كل مشاعرها السلبية.. قبل أن أستعيد سيطرتي على نفسي وأبدأ بالنظر حولي.. فانتبهت إلى وقوف الممرض مشدوها خارج الغرفة وهو ينظر إلي بألم بعد أن سمع بكائي كما يبدو.. كم أتمنى أن أرمي نفسي بأحضان شخص ما ليشعرني بالأمان.. أين أنت يا أبي؟ !!.. لقد فقدت الأمان بعد

موتك.. لماذا وافقت أشقائي على بيع بيتك؟!.. كم كنت غبية يا أبي.. كم كنت غبية!!!.. كم أتمنى أن تكون هنا لتأتي وتمسك بيدي لتخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام.. لكنني الآن أمام حقيقة مرعبة.. وهي أنني كبرت وبت مسؤولة عن نفسي.. وأنني أواجه هذا اللغز وحيدة.. فحاولت التماسك ومجاراة الواقع.. أفكر بكل هذا وأنا أصعد الدّرج مرة أخرى وأطلب من الخادمة أن تتبعني إلى غرفتي.. أما الممرض فقد تجاهلته تماما وتركته مع نظراته المتسائلة دون أن أخبره بشيء.

طلبت من الخادمة بعدها أن تحاول النوم مع التأكيد بأنني سأفسر لها كل شيء غدا.. أعلم أن الفضول يقتلها وأنها تستحق أن تفهم ما يجري هنا.. أعلم أيضا أنها خائفة أكثر مني ربما.. لكني لم أكن بمزاج رائق لسرد القصة لها.. بالطبع لم يكن يسيرا أن تستجيب لأوامري.. أمور كهذه لا يمكن أن تحدث حولك ثم تعود إلى النوم وكأن شيئا لم يكن!!!.. لذا تطلب الأمر وقتا طويلا لنشعر بالنعاس.. حيث تدثرت باللحاف رغم كل شيء ودفنت جسدي ورأسي تحته.. أحاول أن أطمئن نفسي أن تلك التماثيل تتحرك دون أن تكترث بنا أو تضرنا بشيء.. أي أن أسوأ ما سيحدث أن نراها تجول في البيت فحسب.. لكن.. لا يمكن أن ترى أشياء خارقة للطبيعة في بيتك وتتجاهلها حتى إن كنت تعلم أنها لن تضر سوى معنوياتك!!!.. إن ما أعيشه هنا كارثة مهما حاولت التقليل من شأنها.. بالطبع.. أي ظاهرة غريبة نجهلها تُعد كارثة.. فالإنسان يخشى غير المألوف حتى وإن لم يسبب له ضررا.. كيف؟!.. إذا نمت هانئا في فراشك.. واستيقظت فجأة لتجد نفسك في فندق 5 نجوم.. هل ستكون سعيدا؟!.. بكل تأكيد لا.

المشاعر تتضارب.. وتتضارب.. ثم.. طرأت بذهني فجأة فكرة غريبة نوعا ما وإن كنت لا أعرف جدواها.. لماذا لا أصور ما يحدث بهاتفي النقال؟!.. ما الهدف من ذلك؟!.. لماذا سأحتاج هذا الدليل أصلا إن كان الممرض والخادمة قد شاهدا كل شيء معي؟!.. وحتى لو جئت بالتسجيل ليراه أشقائي.. ما الذي سيتغير لو أثبت لهم صدق كلامي؟ !!.. أسئلة منطقية لكنها لا تمنع رغبتي بتوثيق ما يحدث بكاميرا هاتفي.. ما زلت تحت اللحاف.. عيناي تنعسان ببطء إلى أن غرقت أخيرا في ذلك العالم المجهول الذي بت أحبه أكثر من واقعي المخيف.

لكن.. كان نوما متقطعا مع الأسف.. تخللته أحلام وكوابيس لا تنتهي جعلتني مرهفة الحس كالقط المتوتر.. أنام دقائق وأستيقظ لنصف ساعة بسبب الخوف.. فألتفت حولي لأتأكد من أنني أحلم فحسب ولا يحدث شيء مريب في غرفتي.. يبدو أنني لم أعد أخشى الأحلام المزعجة التي تنتابني.. بل بت أخشى الاستيقاظ في كوابيس الواقع!!!.. أختلس النظر من تحت اللحاف.. أرى الخادمة تتقلب باستمرار وتنظر حولها كل لحظة.. طبعا.. لا أعتقد أنها ترغب في النوم وحيدة في غرفتها بعد الآن.. وربما ستقرر قريبا بدورها العودة إلى بلدها بعد ما رأت.. التساؤلات لا تتوقف.. فهناك ألغاز كثيرة في هذا البيت سأجن لو لم أكشفها.. ما زلت أعجز عن تصديق أن السحر قادر على فعل كل هذا.. لقد كان جدي يمارس شيئا يفوق السحر بكثير.. لكن ما هو؟!!.

ترى.. هل تتجسد التماثيل حاليا في الغرف الأخرى أو صالة البيت مثلا؟ !!.. ربما تصول وتجول هناك في هذه اللحظة وأنا نائمة في العسل.. وربما تكون الفرصة سانحة لتصويرها بهاتفي رغم أنني لا أعرف الفائدة وراء ذلك حتى الآن.. لعلني أحتاج هذا الدليل لاحقا.. أثار هذا الخاطر فضولي كثيرا.. وجعلني لا أحتمل البقاء في فراشي لحظة واحدة بعد أن بقيت فيه قرابة النصف ساعة عاجزة عن النوم.

نهضت من مكاني بتردد واضح والفضول يقودني لكشف ما يحدث في هذا البيت رغم كل

مخاوفي.. ألتقط أنفاسا عميقة وسط نظرات الخادمة التي لم تنم بعد.. أخرج من غرفتي بخطوات مترددة رغم أن كل أنوار البيت مضاءة.. هاتفي النقال بيدي وإصبعي متأهب للضغط على زر تصوير الفيديو لتوثيق ما سأراه.

أتجه إلى المتحف بعد أن نزعت عنه القفل السخيف الذي وضعه الممرض لعدم جدواه.. نعم.. مرة أخرى.. تمثال الرجل الأسود غير موجود!!!.. ضغطت مباشرة على زر التصوير لأوثّق ذلك.. أنظر إلى الشاشة وهي تصور الغرفة لحظة بلحظة وصوتي المرتجف يصف ما أراه.. ثم.. أنتقل لأبحث عن التمثال في كل أنحاء البيت.. دخلت إحدى غرف الطابق الأرضي.. فهناك 3 غرف أخرى إلى جانب غرفة جدي.. أضغط على زر الإضاءة في كل غرفة أدخلها و.. الرجل الأسود أخيرا.. إنه في إحدى الغرف بالفعل ويرتكب جريمة قتل مجددا بحق رجل لم أره في حياتي!!!.. طعنات عديدة يوجهها إلى ذلك المسكين.. ملامح الضحية مبعثرة وغير واضحة أيضا وكأنه رسم غير مكتمل.. كالرجل الذي رأيته في غرفتي منذ ساعة أو أكثر.. إنه يسقط جثة هامدة على الأرض.. والرجل الأسود يركل الجثة بقسوة وكأنه يرغب بالتمثيل فيها.. هذا بشع.. بشع للغاية.. في النهاية.. خرجت مني صرخة مدوية.. صرخة هائلة شقت سكون البيت بأكمله.. هذه أول مرة يعلو فيها صراخي.. ففي المرات السابقة كان الرعب يجفف حلقي ويحبس الصوت في جسدي.

بالطبع أثار صراخي هذا جلبة وهز البيت بأكمله.. إذ خرج الممرض من غرفة جدي مرتديا منامته وآثار النوم تملأ عينيه.. وبعده بلحظات رأيت الخادمة تأتي من الدور الثاني وهي تسألني بذعر عما دهاني.. تجاهلت الخادمة وأنا أقول للممرض الذي شاهد كل شيء معي منذ البداية:

-جريمة قتل.. شاهدت جريمة قتل!!!.

قال بفزع:

-ماذا تعنين؟!.. من قتل من؟!!.

أمسكت بيده دون مراعاة لقواعد اللباقة وسحبته معي سحبا إلى الغرفة وأنا أقول:

-ما يحدث هنا يفوق الوصف.. الت.. الت.. التمثال الذي يجسد الرجل الأسود.. إنه يجول في البيت ويرتكب جرائم قتل بحق أناس لا أعرفهم.. هذه ليست المرة الأولى.. لقد حدث هذا في غرفتي أيضا منذ ساعة تقريبا.. الخادمة رأت كل شيء بنفسها.. لقد تكرر الأمر الآن.. إنه.. إنه....

لم أكمل عبارتي.. فحين التفت إلى مكان الجريمة في الغرفة.. لم يكن هناك شيء.. لا.. لا يمكن.. هذا يفوق معايير الواقع والخيال معا!!!.. سأصاب بالجنون إن لم أصب به فعليا.. و.. لم أحتمل أكثر.. إذ انفجرت باكية بحرقة للمرة الثانية في أقل من ساعة.. فاقتربت مني الخادمة وهي تربت على كتفي.. تحاول أن تهدئ من روعي لبضع دقائق رغم ارتجافها الشديد.. الممرض بدوره يحاول تهدئتي ويؤكد لي أنه يصدقني ولا يشك لحظة بما أقوله.

بعد دقائق من الضعف الأنثوي الفطري.. ثم الهدوء والسيطرة على أعصابي.. طلبت منهما أن يأتيا فورا إلى غرفة جدي.. إنها الغرفة الوحيدة التي أشعر فيها بالأمان رغم أنه يقيم فيها وهو خلف كل ما يحدث دون أدنى شك.. ربما لأننا لم نشهد أي شيء خارج عن المألوف في غرفته ولا أفهم السبب وراء ذلك حتى الآن!!!.

ما إن دخلنا حتى سألني الممرض بقلق:

-ما الذي رأيته هذه المرة؟!!.

قلت مطرقة برأسي للأسفل:

-كما قلت لك.. رأيت تمثال الرجل الأسود في تلك الغرفة وهو يرتكب جريمة قتل!!!.. ثم اختفى فجأة.

سألني بتوتر:

-يقتل من؟!!.

قلت بحنق:

-لماذا تريدني أن أكرر كلامي؟!.. قلت لك أيضا إنني لا أعرف هوية الضحايا.. شخص يرتدي الزي الوطني القديم.. كانت ملامحه غير واضحة.. وكأنه رسم غير مكتمل.. تماما كما حدث في غرفتي منذ قليل.. لقد طعنه عدة مرات حتى استحال لون ثوبه إلى الأحمر.. ثم قام بركله بوحشية!!!.

سألني مستغربا:

-وما الذي كنت تفعلينه في تلك الغرفة؟!.. ألم تذهبي قبلها إلى غرفتك للنوم؟!.

قلت متنهدة:

-حاولت استجماع شجاعتي والتجول في البيت علني أنجح بتصوير ما يحدث هنا بواسطة هاتفي النقال.. لا تسألني عن السبب.. فقد نحتاج هذا الدليل.. من يدري؟!!.

رد بكلمات حاول أن يجعلها عقلانية ومنطقية:

-بغض النظر عن ذلك.. ما زلت عند رأيي الذي ذكرته لك سابقا.. من الواضح أن اكتشافك لتلك الغرفة قد أيقظ شيئا.. لعنة.. سحر.. أياً كان الاسم الذي ستطلقينه عليه.. شيئا تركه جدك نائما طوال تلك السنوات واكتشافك للغرفة قد أيقظه!!!.

قلت بعصبية:

-وأنا بدوري ما زلت غير مقتنعة بكلامك.. حسنا.. نحن لا نعرف حدود السحر.. لكن لا شك أن له حدودا ما.. لماذا لا نسمع عن السحرة سوى في الدول الفقيرة التي ينعدم فيها البحث العلمي والثقافة؟!.. إن الساحر رجل قادر على التحكم بالعالم بأكمله.. قادر على معرفة أرقام اليانصيب.. واكتساح مكاتب المراهنات بتوقعاته لجميع المباريات التي سيعرف نتائجها مسبقا.. رجل كهذا لن يكتفي فقط بصنع تماثيل تدب فيها الحياة دون هدف!!!.. ثم ماذا عن جرائم القتل التي نشهدها هنا والتي يرتكبها تمثال الرجل الأسود؟!.

ابتلع كلماته أمام منطقي القوي.. ثم.. رحت أسترق النظر ناحية جدي.. فوجدته واعيا ينظر إلى الهواء كعادته حين يكون مستيقظا.. هل أتحدث إليه للمرة الثانية أو الثالثة ربما؟!.. الغريب أنني -لا شعوريا-وجدت نفسي أتصرف بوقاحة شديدة دون احترام لسنه أو حاله.. إذ نهضت وتوجهت ناحيته لأقوم بهزه برفق في البداية وأنا أطلب منه أن يتحدث إلي.. ثم بشيء من العنف وهو لا يزال غائبا عن عالمنا.. لكني كنت مصرة.. كنت مصرة جدا هذه المرة.. حتى إنني اقتربت منه كثيرا -متعمدة-وصرت في محيط بصره رغما عنه.. آملة أن أترك لديه تأثيرا ما.

و.. أقسم أنها المرة الأولى التي ينظر فيها إلي بطريقة مختلفة!!!.. المرة الأولى التي أرى فيها نظرة يشوبها بعض الاهتمام.. هذا غريب جدا.. لا يمكن أن تفوتني تلك النظرة.. أستطيع -كحال كل

الناس-أن أميز بين النظرات الخاوية والنظرات العميقة التي تؤكد أن شيئا ما تحرك في أعماقه.. الاستغراب واضح على ملامحه.. ربما.. ربما الذهول كذلك.. يا إلهي.. إنه يمد يده ليلمس وجهي!!!.. يده المتعرقة النحيلة تتحسس ملامحي.. فقلت بلهفة يشوبها الكثير من الذهول:

-جدي.. أريد أن أفهم ما يحدث هنا.. ما هي مكانتي عندك.. لماذا صنعت لي هذا التمثال؟!.. هل هو تمثال لجدتي؟!.. هل كانت جدتي تشبهني؟!.. من هي الشخصيات التي تجسّدها بقية التماثيل؟ !!.. كيف تدب فيها الحياة فجأة؟!.. من أنت؟!.. نحن لا نعرفك.. نحن لا نعرفك.. نحن لا نعرفك!!!.

ظللت أكررها إلى أن غرقت في بكاء عنيف.. لم أبكِ في حياتي كما بكيت في تلك الليلة.. هذا مؤكد.. الغريب أنني رأيت اللوعة في عينيه.. حتى إنني خرست فجأة وابتلعت بكائي.. يده المعروقة التي تبللت بدموعي لا تزال تتحسس وجهي.. يريد أن يقول شيئا لكنه يعجز.. لسانه عاجز عن النطق.. لكن.. عاد مرة أخرى وبشكل مفاجئ إلى طبيعته وإلى عالمه الخاص وكأن شيئا لم يكن!!!.

كان موقفا مهيبا جعلني أقف في مكاني مصدومة محتبسة الأنفاس.. هناك أمر واضح ولا يحتاج إلى ذكاء.. شيء ما يربطني بجدي.. شيء أجهله!!!.. تذكرت وجود الممرض والخادمة في الغرفة.. التفت لأنظر إليهما.. فوجدتهما ينظران إلى الموقف بذهول وكأن ما حدث أكثر غرابة من كل ما رأيناه في هذا البيت!!!.. الخادمة تشهق وهي تقول:

-أنا لم أتوقع هذا على الإطلاق.. إنها المرة الأولى التي يستجيب فيها لشيء منذ سنوات طويلة للغاية!!!.

قالتها ليؤكد الممرض الأمر ذاته.. ننظر إلى بعضنا غير مصدقين ما حدث للتو.. وكل منا غارق تماما في تساؤلاته محاولين إيجاد تفسير لما نعيشه ونراه!!!.. ثم.. توقفت أفكارنا في آن واحد حين انتشرت في الغرفة فجأة رائحة كريهة للغاية.. ليتنحنح الممرض وهو يطلب مني أن أخرج كونه يريد أن يستبدل ثياب جدي.. يبدو أنه قد تبرّز.. فنهضت مع الخادمة واضعة يدي على أنفي بسبب سوء الرائحة.. لنخرج من الغرفة سريعا متجهين إلى غرفتي وهي تتحدث بارتباك دون توقف وتطرح أسئلة مبعثرة عن ما يجري حولها.. بالطبع.. كل إنسان في هذا العالم من حقه أن يطلب تفسيرا لما يحدث هنا.

جلسنا في غرفتي ونحن نلتفت حولنا باستمرار وكأننا مُراقَبين.. ثم رحت أتحدث وأخبر الخادمة بكل شيء.. عن جدي وحياته المليئة بالألغاز.. ابتعادنا عنه طوال حياتنا.. وأن كل ما عثرنا عليه مرتبط بحياته الماضية بشكل أو بآخر.. سألتها إن كانت تعرف عنه أي شيء مريب.. فقد فاتني أن أطرح عليها هذا السؤال حين اكتشفت وجود المتحف أول مرة.. لكنها عموما كررت ما أعرفه عن عزلة جدي المريبة وأنه كان قليل الكلام يقضي جل وقته في القراءة.. مع مسحة الحزن المستمرة التي لا يفهم أحد سببها.

لم أعلق على كلامها.. بل طلبت منها بشيء من الود أن تحاول النوم ملء عينيها مهما بدا ذلك عسيرا.. أما أنا فذهبت إلى فراشي وقمت بتشغيل الفيديو.. كانت مدته نصف دقيقة تقريبا.. أتحدث عن الفيديو الذي قمت بتصويره في غرفة المتحف أثناء خلوه من تمثال الرجل الأسود.. والفيديو الآخر كذلك.. نعم.. لقد قمت أيضا بتصوير جريمة القتل.. لحسن الحظ أنني تمالكت نفسي حينها وفعلتها.. قد أحتاج هذا الدليل.. من يعلم؟ !!.. ولحسن الحظ أيضا أن التصوير كان

بمنتهى الوضوح.

لم أنم طويلا رغم الإرهاق الشديد.. فقد استيقظت بعد حوالي 4 ساعات فحسب ووجدت أن الساعة تتجاوز التاسعة صباحا بقليل.. نهضت من فراشي لأفاجأ أن الخادمة قد استيقظت قبلي وقامت بترتيب فراشها ورَكْنه في زاوية الغرفة.. ثم توجهت إلى الحمام.. ووقفت مدة طويلة تحت شلال الماء الساخن.. أفكر بكل ما يحدث.. قبل أن أرتدي ثيابي وأخرج إلى مقهى (ستاربكس) في منطقة (الشامية).. ما أجمل المقاهي في الصباح.. أجلس هناك بعيدا عن زحمة الحياة.. أشرب القهوة وأقرأ الصحف وأفكر.. أنظر إلى دخان القهوة المتصاعد.. جدي.. متى ستموت لنرتاح جميعا؟!.. وهل ستتوقف تلك الأحداث الغريبة أصلا بعد موتك؟!.

أفكر بشيء أفعله.. أتصل بشقيقتي الكبرى.. إنها أقرب شقيقاتي إلي.. أعلم أنها كبيرة في السن وساذجة إلى درجة كبيرة.. بل هي من تسببت بالمشكلة بيني وبين ابنة شقيقي والتي انتهت إلى مجيئي للإقامة هنا كما تعلمون.. لكني أرغب بالفضفضة فحسب.

اتصلت بها عموما.. وبعد التحية وعبارات المجاملة واتهامها لي بالتقصير لعدم زيارتها في الأيام السابقة.. فتحت الباب المحظور الذي نكره جميعا الخوض فيه.. تحدثت عن جدي.. وعن حياته.. أريد أن أعرف القصة من منظورها هي وإن كنت لا أظن أنها ستقدم لي أي جديد.. و.. نعم.. لم تكن هناك أي مفاجأة.. فما تعرفه لا يتجاوز ما سمعناه من أبي رحمه الله.

كان كل ما فعَلَتْه هو إصرارها على أن أقرأ المعوذات والأدعية باستمرار.. تماما كما فعَلَت في المرة الأولى حين علِمَت بالقصة.. ثم راحت تتحدث عن السحر والشعوذة كونها أمورا تكره كثيرا الخوض فيها مما يجعلها بالتبعية تكره التحدث عن جدي لأنه مرتبط في أذهاننا جميعا بهذه الأشياء المريبة.. و.. إلخ.. فأشعرني كل هذا بحنق شديد كون أحدا منهم لا يعرض علي الانتقال والسكن عنده ولو من باب المجاملة!!!.. حقا إن حياة المرء تتغير كثيرا بعد الزواج والإنجاب لتصبح حياته السابقة مع إخوته مجرد ذكريات يتندر بها ويستذكرها حين يجالسهم.

كنت بمثابة المحقق الذي يرى تفاصيل جريمة كامله أمام عينيه لكن التفاصيل هذه تزيد من الجريمة غموضا.. المهم أنني أنهيت المكالمة بسرعة بسبب مكالمة أخرى في الانتظار ولأنني لم أجد أي فائدة من محادثة شقيقتي أصلا.. كانت المكالمة الأخرى من صديقة لي ذكّرتني أن هناك عالما حقيقيا أعيشه بعيدا عن تلك الأجواء الغريبة.. إذ راحت تتحدث عن أمور جانبية قبل أن تسألني إن كان ممكنا أن أخرج معها اليوم.. حسنا.. ربما من الأفضل أن أقوم بتغيير الأجواء السوداوية التي أعيشها.. لقد غرقت في عالم تلك التماثيل.. وهذا سيؤدي إلى نتيجة قد لا تحمد عقباها.. كأن أكون نزيلة في مستشفى الطب النفسي مثلا!!!.

عدت بعدها إلى البيت.. ليمر اليوم بهدوء شديد لم تتحرك فيه التماثيل كما حدث في الأيام الثلاثة الأخيرة.. هل حقا مضت 3 أيام فقط؟!.. هذا لا يصدق.. نفضت تلك الأفكار من رأسي في المساء حين خرجت مع صديقتي واتجهنا إلى مطعم (لينوتغ) (Le Notre) الذي أعشق هدوءه وأناقته وإطلالته.. لنجلس في الشرفة الخارجية المطلة على البحر.. أنظر إلى قائمة الطعام مصرة أن أطلب شيئا جديدا.. لكني أختار نفس الطلب كما أفعل دوما!!.. أشعر أنني أخوض معركة يومية بين عشقي للأكل وكراهيتي للسمنة.. ويبدو أن الطريقة الوحيدة لتحافظ فيها على صحتك أن تأكل الأطعمة التي تكرهها!!!.

أسمع صوت الأمواج والهواء الرقيق يلمس بشرتي بحنان.. فنحن في منتصف شهر أكتوبر..

صديقتي تتحدث عن ذلك الشاب الذي تقدم لخطبتها لكنها رفضته لعدم تكوينه لنفسه بعد.. ولمعرفتها أنه عاش تجارب غرامية كثيرة سابقة ومن المستحيل أن يستقر على فتاة واحدة بعد كل هذا.. فأستمع إليها وذهني مشغول تماما بما أمر به!!!.. لقد ظننت أن الخروج سينسيني ما عشته من أحداث مؤخرا.. لكن هيهات.. ورغم أنني أحب كثيرا الحديث مع صديقتي هذه.. إلا أنني شعرت بشيء من الملل معها.. فكرت أن أخبرها بقصتي.. لكني على يقين أنها لن تصدقني.. وحتى لو صدقتني.. فما الذي سأستفيده غير فتح ملفات عائلية يفضل أن تكون في طي النسيان؟ !!.. لذا خرست وكنت مستمعة أكثر من متحدثة.. لتستغل هي ذلك خير استغلال وتستمر في الحديث وأنا آكل طعامي ببطء شديد وأصدر همهمات توحي أنني أستمع إليها.. لحسن الحظ أنها لم تنتبه لغياب عقلي في لقائنا هذا.

انتهت الأمسية أخيرا.. ووجدت نفسي أسرع الخطى ناحية السيارة للعودة إلى البيت وقد طرأت في ذهني فكرة كان يفترض أن تكون بديهية للغاية لكنها غابت عني طوال الأيام الثلاثة السابقة بسبب التوتر الشديد الذي عشته والذي منعني من التفكير بصورة سليمة!!!.. يبدو أن أجواء المطعم الهادئة وصوت مياه البحر كان لهما تأثير إيجابي على عقلي.. أتحدث طبعا عن التفتيش بين أمتعة جدي وأغراضه الشخصية علني أكتشف شيئا!!!.. عدت سريعا إلى البيت واستبدلت ثيابي بثقة لا أفهم سببها.. ثم ذهبت بحماس للبحث في غرفة نوم جدي القديمة في الطابق العلوي والتي لم يعد ينام فيها بعد أن انتقل إلى الطابق السفلي منذ سنوات طويلة كما علمت من الممرض.

أبحث بدقة شديدة بين ثيابه.. أوراقه.. بعضها قديم جدا.. لكن لا يوجد فيها ما يثير الشك أبدا.. إلى أن يئست وخرجت من الغرفة متجهة إلى غرفته الحالية.. فجلست أمامه وأنا أرى الممرض يطعمه بطريقة آلية بصمت مطبق سوى من صوت جهاز التلفزيون الذي يبث فيلما أجنبيا من أفلامي المفضلة.. لو كان مزاجي رائقا لجلست أشاهد الفيلم.. لكن.. هناك لغز في حياتي.. لغز سأموت إن لم أفك طلاسمه.. من الغريب أنني فكرت كثيرا في الانتقال من هنا صباح اليوم.. بل ما زلت أتذكر كيف كنت أتحدث مع أشقائي منذ يومين فحسب وأخبرهم أنني لا أستطيع أن أقضي في هذا البيت ليلة واحدة.. لكني الآن ولسبب غير مفهوم أشعر بانجذاب هائل نحوه!!!.. لا أستطيع أن أفسر هذا التناقض.

توقف تفكيري حين لاحظت ملامح الممرض المتجهمة وهو يطعم جدي.. فسألته باستغراب عما به.. ليرد بحنق:

-ما الذي تتوقعينه؟!.. إنني أعيش وسط كوابيس بسبب جدك اللعين.. كنت أحب هذا البيت كثيرا.. لكني بت أخشاه كالجحيم.. لقد رأيت أشياء مخيفة في الصالة اليوم.. ولو ذكرتها لك لعجزت عن النوم.. الخادمة تشعر بالرعب كذلك وترى أشياء مريبة هنا.. كيف نعيش حياة طبيعية بوجود تماثيل تتجسد فيها الحياة وتتحرك.. حتى لو قمنا بكسرها ورميناها في القمامة فلن يغير هذا شيئا من كراهيتي للبيت بعد أن تلوث في نظري إلى الأبد.. لقد تحدثت مع الشركة صباح اليوم.. سأعود إلى بلدي خلال أسابيع قليلة!!!.

إنها ليست المرة الأولى التي يصف فيها جدي ب(اللعين)!!!.. لكن.. كيف ألومه بعد كل ما رآه بنفسه؟ !!.. فأومأت برأسي ببرود دون أن أقول شيئا.. وجلست في الغرفة ذاتها أفكر بكلامه عن التخلص من التماثيل.. كنت أخشى هذا الاقتراح لسبب ذكرته سابقا.. لكن الإبقاء عليها أيضا لن يفيد.. ربما التخلص منها هو الحل الأمثل.. ولو كشفت السلطات الأمر فسأستطيع الادعاء أنني

لم أكن على علم بشيء.. نعم.. هذا أفضل الحلول.. دعكم من أن هناك احتمالا كبيرا أن يمر الأمر بسلام وألاّ ينتبه عمال النظافة لشيء لو قمت بتحطيم التماثيل بالجثث التي تحويها والتي تحولت الآن إلى هياكل عظمية دون شك ووضعها كلها في أكياس بلاستيكية محكمة الغلق ثم رميها في حاوية القمامة؟ !!.. هل أنا واثقة أن التماثيل تحوي جثثا بالفعل؟!.. سأعرف قريبا.

نقلت خواطري إلى الممرض فهز كتفيه بلا مبالاة.. يبدو أنه حسم أمره بالفعل بشأن العودة إلى بلده.. يتعين علي التفكير بالتعاقد مع ممرض آخر ليهتم بأمر جدي.. سأفكر بذلك فيما بعد.. يجب علي أولا تحطيم تلك التماثيل إلى فتات.. بل ورحت أتخيل نفسي ممسكة بعصاة مكنسة يصلح استخدامها لكسر أي شيء.. ثم أتصرف وكأنني موحّدة دخلت بلاد الكفر وقمت بتحطيم تماثيلهم الوثنية.. وربما سيأخذني الحماس لأصرخ:

-الله أكبر!!!.

مهلا.. توقف حماسي عند نقطة طرأت في ذهني فجأة.. لماذا لا أفعل شيئا هاما للغاية قبل ذلك؟ !!.. أن أقوم بتفتيش المتحف بدقة أكبر أولا.. إنه يحوي على الأرجح كل الألغاز المتعلقة بجدي.. لم أفكر بهذه الخطوة من قبل لأن الغرفة لم تبدُ لي أنها تخفي شيئا أصلا.. كما أنها كانت تسبب لي الكثير من الرعب.. لكني الآن أمام أمرين.. إما البقاء هنا ومحاولة حل اللغز إن كان هناك لغز فعلا غير قصة السحر والجن و(النكرومانسي) الذي -لسبب ما- جعل تماثيل الضحايا تنهض وتجول في البيت.. أو أن أفرض نفسي فرْضا على أشقائي بكل وقاحة ليستضيفني أحدهم عنده لحين العثور على وظيفة.. أو ربما أجن.. لا توجد حلول أخرى.. فتحطيم التماثيل قد لا ينهي المسألة.. يجب أن أتذكر ذلك!!!.

قلت للممرض متجاهلة كل كلامه عن رحيله:

-يجب أن نفتش ذلك المتحف جيدا.. أعلم أن قلوبنا قد تتمزق رعبا لو عاد أحد التماثيل إلى الحياة أثناء ذلك.. لكن لا مفر.. وسنفتش المكتبة جيدا أيضا.. ولو لم نعثر على شيء.. فسنقوم حينها بتحطيم التماثيل.. ربما ستعود الأمور بعدها كما كانت.. وإن كنت أشك في ذلك.. فالحلول المادية لن تنفع مع ظواهر غير مادية.. لكن لا بأس من محاولة أخيرة.

لم يتطلب الأمر وقتا طويلا لأقنعه بذلك.. يبدو وكأنه شعر بشيء من الاطمئنان بعد أن قرر ترك البيت وأنه لن يكون هنا بعد أسابيع قليلة على حد قوله.. لذا خرج معي واتجهنا مباشرة إلى المتحف.. الخادمة في غرفتها كما يبدو.. هذا لا يهم الآن.. فقد عقدت العزم على اكتشاف ما يحدث ولن أخرج من المتحف قبل ذلك.. دخلنا ويدي ممسكة بهاتفي النقال معتمدة على إضاءة الكشاف المنبعثة منه لكشف أي تفاصيل دقيقة في الغرفة قد لا تصل إليها إنارة الصالة.. و.. أصبحنا بمواجهة التماثيل.. إنها المرة الأولى التي نقترب منها إلى هذا الحد منذ أن علمنا أنها تتحرك من مكانها!!!!.. جميعها تقف صامتة ساكنة خالية من الحياة.. الممرض يتنحنح ويسأل بهمس متوتر:

-ما الذي تريدونه؟!.. من أنتم بالضبط؟!!.

إنه يخاطب التماثيل بالطبع وقد بدا غبيا للغاية وهو يفعل ذلك.. لكن من ناحية واقعية.. إنها ليست تماثيل عادية كما نعلم جميعا الآن.. فهذا المتحف ليس سوى قبر على الأرجح.. والقبور ليست دائما صامتة.. والموتى أيضا ليسوا دائما صامتين.. ربما إذا حاولنا أن نسمعهم بقلوب مفتوحة.. وعقول مفتوحة.. فقد يصل إلينا صوتهم.. في البداية قد يبدو صوتهم مخيفا وتهديدا

لنا.. لكنه قد يكون رسالة.. ما هذه الرسالة؟!.. لا أعلم.

أمسح على التمثال الذي يمثلني.. أتحسسه وكأنني ألمس ثعبانا أو أسدا نائما قد يستيقظ في أي لحظة ويهجم علي.. ثم.. قمت بإزالة الثوب البسيط الذي يرتديه.. لأرى نفسي عارية تماما!!!.. غريب أن أشعر بالخجل من نفسي.. أو فلنقل من تمثالي.. خاصة بوجود الممرض.. حتى إنني ألبسته الثوب مرة أخرى.. على كل حال.. لا يوجد شيء إطلاقا.. إنه مجرد تمثال عادي جدا.. في كل المقاييس العلمية والمنطقية يستحيل أن يتزحزح من مكانه من تلقاء نفسه.. فكيف يفعلها ويتجسد؟!.. وهل هو يتجسد ماديا.. أم إلى شبح؟!.. لا أعلم.. فأنا لم أجرؤ على محاولة لمس أي من التماثيل حين تجسدت.. ولولا مشاهدة الممرض والخادمة لكل شيء بنفسيهما.. لبت متأكدة أن حالتي العقلية ليست على ما يرام.

-اللعنة!!!!.

قلتها بحنق شاعرة أنني أمام لغز هائل بحجم الكون ذاته!!!.. أزفر وألتقط نفسا عميقا مرة أخرى.. لأتجه هذه المرة إلى المكتبة.. إنها المكان الوحيد الذي لم أبحث فيه بعناية.. لقد قمت سابقا بانتقاء الكتب بطريقة عشوائية والبحث فيها فلم أجد شيئا.. يجب أن أقوم بعملية بحث واسعة النطاق حتى لو استغرق الأمر اليوم بأكمله.. ثم إنني لم أبحث في الأرفف العلوية.. نعم.. لا بد من التأكد.. خرجت من الغرفة مسرعة لأنادي الخادمة.. لا أعلم إن كنا نملك سلّما في هذا البيت.. سألتها فاتضح أن لدينا واحدا لحسن الحظ.. جاءت به إلى الغرفة ثم خرجت سريعا وكأنها لا تود أن تلوث نفسها بالبقاء طويلا هنا.. إنني على يقين الآن أنها ستخبرني قريبا برغبتها في العودة إلى بلدها أيضا.. تصرفاتها توحي بذلك.. لا ألومها على خوفها.

المهم.. استخدمت السلّم الذي ملأه الصدأ لأصعد إلى الأرفف العلوية.. أتصفح الكتب واحدا تلو الآخر ولا أجد شيئا غير عادي.. أعدل من مكان السلّم في كل مرة.. بينما الممرض يبحث في الكتب الموجودة في الأرفف التي سمح به طوله بالوصول إليها.. جميعها كتب فلسفية.. أو روايات.. لكنها قديمة جدا.. بعض الطبعات تعود إلى عام 1940!!!.. هذه مكتبة أثرية إن صح التعبير.. ألتفت بين لحظة وأخرى للتأكد من أن التماثيل في مكانها ولم يتحرك أحدها!!!.. مهلا.. هذا غريب.. لقد شعرت للتو بلفحة هواء صاحبتها رائحة عطن قوية لا يخطئها الأنف.. شممتها فجأة عندما أخرجت هذا الكتاب تحديدا من على الرف.. نظرت خلف الكتاب.. هل هذا يعقل؟!.. هل هذا يعقل؟!.. قمت بتصويب شعاع الضوء من هاتفي النقال.. يا إلهي.. بالفعل.. هذه المكتبة ليست ملتصقة بحائط الغرفة كما هو مفترض.. بل تم صنعها في منتصف الغرفة.. إنها تخفي شيئا خلفها إذا!!!.. تخفي غرفة أخرى!!!.. نعم.. أخرجت كتابا آخر.. وآخر.. رائحة العطن تزداد.. إلى أن بدأت أرى أركان الغرفة الخلفية.. قلبي ينبض بقوة.. شعور غريب بأنني اقتربت جدا من الحل.. فصرخت بالممرض بانتصار وأنا أقول:

-هناك غرفة.. هناك غرفة صغيرة خلف تلك المكتبة!!!.

شهق وهو يردد كلماتي بذهول شديد.. ثم دبّت فينا الحياة مرة أخرى ورحنا نزيح الكتب كلها ونرميها على الأرض بلا اكتراث.. لتتبقى الأرفف فقط وتتضح الصورة كاملة لنا!!!.. جانبا المكتبة حقيقيان تماما.. لكن منتصفها ليس أرففا للكتب فقط.. بل باب.. باب اتضحت هيئته الآن بعد أن أزلنا عنه كل الكتب من على أرففه.. نستطيع الآن أن نميز جزءا من الغرفة الخلفية هذه.. كنت أظن أن هذا يحدث في الأفلام التاريخية فقط.. لكن أذكركم وأذكر نفسي أننا في بيت في منطقة

(الفيحاء)!!!.

أصوّب ضوء الكشاف القوي المنبعث من هاتفي لأرى منضدة خشبية قديمة من دون أدراج وُضعت عليها بعض الدفاتر التي ملأتها الأغبرة وبيوت العنكبوت.. هذا لا يصدق.. لا يصدق أبدا.. الغرفة صغيرة جدا.. من المؤكد أنها كانت جزءا من هذه الغرفة التي تحوي التماثيل لكن جدي فصل بينهما لسبب ما.. هناك أيضا أجهزة إلكترونية كبيرة الحجم نسبيا.. أجهزة قديمة جدا لا أعرف ماهيتها!!!.. لا أستطيع أن أرى كل محتويات الغرفة الخلفية هذه لأن المكتبة لا تزال تحجب الجزء الأكبر منها.. فلا يمكن أن نرى سوى الباب الذي أزلنا الكتب من على رفوفه.. كما أن إنارة الصالة بعيدة نسبيا لا تصل إلى الداخل.

يجب أن نفتح هذا الباب.. لكن أحدا منا لم يتحرك رغم ذلك.. إنه الخوف المعتاد من المجهول.. هل سيخرج لنا شيئا ما ليسحبنا إلى الداخل ويلتهمنا كما يحدث في الأفلام؟ !!.. ما الذي سيخرج أصلا؟ !!.. بذلت جهدا خارقا لأطرد مخاوفي تلك.. وطلبت من الممرض أن يساعدني في فتح الباب وأنا أقول بحلق جف تماما من اللعاب:

-يجب أن نعرف ما تحويه هذه الغرفة!!!.

قلتها وتوجهت مباشرة ناحية منتصف المكتبة التي عرفنا أنها باب الدخول في واقع الأمر.. فتبعني الممرض دون أن ينطق بكلمة.. الضوء المنبعث من هاتفي يرتجف بقوة كناية عن توتري وخوفي.. كيف نفتح هذا الباب؟ !!.. ندفعه تارة.. ونسحبه تارة أخرى.. إلى أن تحرك أخيرا.. سحبناه إلى الأمام ووضعناه جانبا.. لحسن الحظ لم يكن ثقيلا.. فهو ليس سوى أرفف خشبية رديئة الجودة.. و.. دخلنا الغرفة.. إنها غرفة صغيرة جدا بالفعل تم اقتطاعها من باقي غرفة المتحف كما علمنا.. ما هذه الأجهزة القديمة؟ !!.. إنها كبيرة الحجم نسبيا.. ربما أكبرها بحجم شاشة الكمبيوتر وأصغرها بحجم راديو صغير.. جميعها مركونة على الأرض.. ما الذي تفعله هذه الأجهزة تحديدا؟ !!.. أنا لم أرَ شيئا كهذا من قبل.

ماذا عن الدفاتر الموجودة على المنضدة؟ !!.. الأتربة تغطيها تماما.. أزيح الأتربة من عليها بكفّي.. فيقوم الممرض بمساعدتي وقد بدا مبهورا بما نراه.. رائحة العطن تملأ المكان.. لكن لا بأس.. إنها تزول بسرعة بعد أن أزلنا الكتب وفتحنا الباب.. أتصفح الدفاتر واحدا تلو الآخر.. جمعيها تحوي رسومات وأشكالا هندسية غريبة ومصطلحات إنجليزية معقدة للغاية لم أفهم منها حرفا رغم دراستي في (الولايات المتحدة الأمريكية).. ربما سأضطر لفتح قواميس اللغة الإنجليزية لاحقا لأفهم.. هل.. هل صنع جدي أجهزة للتواصل مع الجن؟!!!.. يا إلهي.. هذا مخيف للغاية!!!.. مهلا.. هذا الدفتر يختلف عن البقية.. هل هو دفتر مذكرات؟!.. إنه الوحيد الذي يحوي كلمات وسطوراً طويلة بخلاف باقي الدفاتر.. هل يحوي مفتاح هذا اللغز الذي نعيشه؟!!.

أمسكت بالدفتر ونظرت إلى الممرض الذي يحدق بي بالمقابل.. لنخرج من الغرفة باتفاق غير مكتوب متجهين إلى غرفة جدي.. حيث جلسنا معا على الأرض.. وفتحت الصفحات الأولى من الدفتر بعد أن ضربته بالأرض أكثر من مرة لأنفض عنه الغبار.. أبدأ بالقراءة بعينين تحملان لهفة لا حد لها.. الممرض يقترب مني ويحاول قراءة المذكرات معي بفضول شديد لا ألومه عليه.. فمن حقه معرفة ما يجري في هذا البيت بعد تلك السنوات الطويلة التي قضاها فيه.

جلسنا نقرأ معا.. نقرأ.. ونقرأ.. ونقرأ.. حتى سرقتنا الكلمات من الزمان والمكان وأنستنا العالم كله!!!.. إنها قصة طويلة جدا.. قصة غريبة حزينة مثيرة لا يصدقها عقل.. لا أذكر عدد المرات

التي شهقنا فيها لكنها كانت كثيرة للغاية دون شك.. يبدو أن جدي كان يكتب أهم أحداث حياته في هذا الدفتر.. إذ يذكر فيه لمحات من البؤس الذي عاشه وسخرية الناس منه وتعرّض الصبية له في طفولته لأنه كان مختلفا عنهم دون أن يعرف أحد منهم أصلا وجه الاختلاف بالضبط!!!.. لقد ذكرت لكم هذا في بدايات قصتي حين انتقلت للإقامة في بيت جدي منذ أسبوعين تقريبا.. أسبوعين فقط رأيت خلالهما ما لا يصدق!!!.. المعذرة.. لن أتحدث كثيرا.. سأترككم مع أهم المقتطفات من مذكرات جدي لتعرفوا سبب الصدمة التي أخرستنا وغيرتني شخصيا إلى الأبد.. بل وجعلتني أنظر للعالم بأكمله بطريقة مختلفة!!!.. فلتقرؤوا معي كلماته التي قمت بإجراء بعض التعديلات والإضافات عليها كي تصل إليكم الصورة كاملة:

((أنا لا أحمل أي ذكريات سعيدة.. أمي لم تكن تتحدث معي كثيرا بسبب العمل المستمر ومسؤوليات البيت التي أنهكتها.. أبي غائب في رحلات الغوص طوال الوقت.. كنت أشعر أنني أعيش حياتي منتظرا شيئا ما ليجعلها أفضل.. أنتظر معجزة ما.. ما هي؟!.. لم أكن أعلم.. وقد كان هذا مؤلما للغاية.. فأكثر شيء يؤلمني الانتظار.. خاصة إذا كنت لا أعرف ما الذي أنتظره!!!.. كنت أخرج من البيت في طفولتي محاولا أن أستكشف العالم.. أحاول أن أنسجم مع أقراني الأطفال.. لكن يبدو أنني كنت مختلفا عنهم.. والناس يكرهون كل ما هو مختلف.. بل واكتشفت أنهم يهابونني لسبب ما ويفتحون أفواههم غير مصدقين أحيانا لأشياء بديهية أخبرهم بها وأراها عادية للغاية!!!.. لم أكن أفهم سبب نفورهم.. لكني مع مرور الأيام عرفت.. إنهم يستخدمون كلمات معتادة بالنسبة لهم لكني لا أعرفها أبدا.. مثل كلمة (نسيان)!!!.. لم أفهم ما معنى أن (ينسى) المرء شيئا.. كنت أسألهم عن معنى الكلمة.. فيسخرون مني جميعا وكأنني غبي للغاية.. ثم.. حين نتحدث حول أمور عامة.. أجدهم يفتحون أفواههم ذهولا لما أقوله.. ويتهامسون فيما بينهم بأنني أتذكر أشياء دقيقة جدا لا يمكن لبشر عادي أن يتذكرها.. فأنا بالفعل أتذكر كل موقف عاصرته وعشته.. وبكل تفاصيله الدقيقة.. وكأن ذاكرتي فوتوغرافية.. أنا نفسي لم أكن أدرك أن هذا أمر مميز آنذاك.. بل ظننت أن كل البشر بهذه الصورة.. قبل أن أعرف من باقي الصبية أن الناس تنسى الكثير من ذكرياتها وأحداث حياتها مع مرور الأيام.. على عكسي أنا.. وقد عرفت سر ذاكرتي الغريبة هذه بعد سنوات طويلة من قراءاتي المستمرة.. وبعد أن تحولت (الكويت) إلى بلد حضاري مدني انتشرت فيه المكتبات.

إنني أعاني من مرض عقلي نادر جدا يطلق عليه اسم (هايبرثيميسيا) (Hyperthymesia).. إنه مرض غريب بحق.. فالمتعارف عليه إصابة الناس بفقدان الذاكرة لأسباب طبية مختلفة.. أما هذا المرض فهو عكس فقدان الذاكرة.. إنه مرض التّذكّر!!!.. مرض يجعلني أتذكر أدق التفاصيل التي أمر بها في حياتي.. بل إن ذاكرتي قوية جدا لدرجة أنها تحاكي ما شعرت به في أحداث الماضي حين مررت بها.. تخيل أن تحضر جنازة أحد أقاربك مثلا.. فتتذكر الجنازة بكل تفاصيلها الدقيقة مهما مرت السنوات ويتملكك ذات الحزن الذي شعرت به حينها دون أن تمتلك نعمة النسيان!!!.. تخيل أن تقرأ كتابا كاملا فتحفظ مباشرة كل ما فيه ولا تنسى منه حرفا.. بل وتستطيع أن تسرده غيابيا بعد قراءته مرة واحدة فقط!!!.. تخيل أن تحدق بالنجوم وتتذكر مكان كل نجم في السماء ([14]).

لقد كانت ذاكرتي الفوتوغرافية المذهلة هذه سبب لعنتي.. هي التي جعلت كل من هم حولي يخشون الاحتكاك بي دون أن يفهموا سبب اختلافي عنهم.. فبسبب ثقافة المجتمع المحدودة آنذاك وكون الناس يكرهون دوما كل ما لا يفهمونه.. فقد ظنني الجميع ممسوسا بالجن أو

مجنونا.

وقد كان لظنونهم تلك دورا هاما في عزلتي عنهم.. فالاختلاف هو بوابة الوحدة.. ويبدو أن حياة الوحدة مصير كل الأرواح العظيمة!!!.. حتى إنني ظللت أطلق على نفسي لقب (لون تشاني) ([15]).. لقد كنت أعرف الجميع.. والجميع يعرفونني.. لكنني كنت غريبا.. ووحيدا.. فأقضي جل وقتي في قراءة الكتب التي أحصل عليها من مكتبة (الرّويح).. لأصل مع مرور الأيام إلى درجة مخيفة من كراهية الناس والاحتكاك بهم في أي مكان.. ولا حتى في المسجد.. فكنت أصلي في البيت على عكس جميع الرجال والأطفال آنذاك رغم النصائح التي انهالت على مسامعي ممن يحبون لي الخير على حد قولهم.. لم يكن أحد منهم يفهم أن عقلي -وبسبب هذا المرض- ليس متوازنا.. وصاخبا للغاية يعمل باستمرار دون أن يهدأ لحظة واحدة مما جعلني أكره التواجد بين الناس.

لقد أخذني والداي إلى أكثر من شيخ دين حين وصلت إليهما الشائعات التي تتحدث عن إصابتي بمس من الجن.. خاصة بعد أن لاحظا بدورهما ذاكرتي المذهلة على حد قولهما.. لكن جميع المشائخ عجزوا عن علاجي بالطبع.. لهذا شعر والداي باليأس وتوقفا عن محاولاتهما مع مرور الأيام بعد أن دفعا أموالا طائلة قياسا لحال أسرتنا المتواضع.. وقد ابتعد عني جميع الأولاد في ذلك الوقت.. فباتوا يتجنبونني.. وأحيانا يضايقونني ويضربونني.. لأصبح الصورة المجسدة التي نراها في الأفلام الأجنبية للولد غريب الأطوار الذي يمتلك قدرات مخيفة والذي يطلقون عليه لقب (Freak) أو (شخص استثنائي غير سوي) وهذه ربما أقرب ترجمة عربية للكلمة!!!.

وبعد وفاة والدتي عام 1943 بسبب بعض المشاكل الصحية.. لحقها والدي في عام 1945 حين لقي حتفه في واحدة من رحلات الغوص المحفوفة بالمخاطر.. لأتحول في ليلة وضحاها إلى يتيم الأبوين.. فكانت هناك الكثير من المآسي والأحزان.. الكثير من الصدقات من الجيران في الأيام التي تلت العزاء.. لكني كنت في الخامسة عشرة.. وفي سن الرجولة آنذاك والتي تحتّم علي كسب قوت يومي دون أن أعتمد على الصدقات التي قلت تدريجيا مع مرور الأيام.. فتمكنت من الحصول على وظيفة تكفين الموتى في المقبرة لأحصل على روبيات قليلة بالكاد تكفيني.. ولم يكن الأمر سهلا حتى في عملي.. فكل الأطفال الذين كانوا يكرهونني قد كبروا أيضا بطبيعة الحال.. وبعضهم كان يعمل في المقبرة معي.. لم يعد أحد منهم يضايقني كما كان الحال في السابق.. لكنهم ابتعدوا عني فحسب بسبب ذكرياتهم عني ونظرتهم لي على أنني إنسان غريب الأطوار يجب أن أترك وشأني.. وقد ازداد نفورهم مني بعد أن شاهدوني أقضي أوقاتا طويلة في المقبرة ليلا بعيدا عن أعين الناس.. فانتشرت بعض الأقاويل أنني أسرق الجثث لأمارس عليها سحر يطلق عليه اسم (نكرومانسي) كما علمت فيما بعد.. وقد تفاقمت تلك الأقاويل حين رآني أحدهم ذات مرة في وقت متأخر من الليل وأنا أحمل صندوقا ثقيلا إلى البيت.. حدث هذا حين أبلغني السيد (مرزوق) -وهو رجل أسود البشرة ضخم الجثة لكنه كان طيب القلب ويعطف علي كثيرا ويساعدني- أن أحد سفن البضائع القادمة من (الهند) تحوي صندوقا من الكتب باللغة الانجليزية وقد قامت السفينة بشحنه إلى (الكويت) بالخطأ.. وبسبب معرفة الرجل بحبي الشديد للقراءة.. فقد ساعدني على الحصول على هذا الصندوق.. وأخبرني أنه سيقوم بتسليمه لي في وقت متأخر حتى لا يوقفه أحد.. فالأمر كان أقرب إلى السرقة.. إلا أننا لم نرَ في الأمر ضررا كون الكتاب لم تكن له تلك القيمة أصلا في ذلك الوقت.

حدث صغير كهذا كان مادة ثرية وسهلة لنشر الشائعات وتأكيد كل الشكوك.. خاصة مع شخص

منعزل غريب الأطوار مثلي.. بل إن أحد المشائخ تحدث عن قتلي لو تأكد من صحة تلك الشكوك!!!.. لكن جميع القبور كانت سليمة تماما لم يمسها أحد كما تبين للجميع.. فأهمل الناس أمري مع مرور الأيام.. ولم يعرفوا أبدا أن السبب الحقيقي لزياراتي المستمرة للمقبرة تلك الذكريات التي ظلت تقتلني.. ذكريات وفاة والداي رحمهما الله.. كنت أتذكر لحظات الدفن والعزاء بكل دقة.. فأزور المقبرة كل يوم وأقضي ساعات في البكاء عند قبريهما.. وكأنني أعيش لحظة دفن كل منهما وتلقّي العزاء من الناس بشكل يومي.. لا يمكن لأحد أن يتخيل كيف سيبدو الأمر حين يتذكر المرء وفاة والديه وأيام الحزن والبكاء بكل تفاصيلها.. وكأنه يعيش حالة عزاء مزمن لا يتوقف أبدا!!!.

لقد كنت أكره حياتي وأكره هذا المرض الذي قد يظنه البعض موهبة.. إنه مرض بكل تأكيد وليس موهبة.. فإذا تمسك عقلك بالماضي.. سيموت منك جزء صغير كل يوم.. لذا شعرت أنني باقٍ في الظلام.. متجمد في الزمن إلى الأبد كوني لا أملك نعمة النسيان.. نعم.. النسيان نعمة.. خاصة حين يموت أحباؤك ومشاعر الحزن التي تملأ روحك لا تنمحي أبدا من ذاكرتك مهما مرت بك الأيام!!!.. أو حين تتذكر كل لحظة تعرضت فيها للضرب والإهانة من أقرانك.. لقد تسبب لي ذلك المرض باكتئاب نفسي حاد مع شعور بغيض بالنقص.. حتى فقدت أي استمتاع بالحياة.. فكيف ستعيش إذا كنت لا تستطيع أن تصنع ذكريات سعيدة تطغى على ذكريات الألم التي تلتهم عقلك كل يوم وكل لحظة؟!

وبسبب اختلافي عن الجميع وهدوئي الشديد وذاكرتي التي تسترجع دوما كل تفاصيل أيامي وبصورة لا إرادية.. كنت حساسا للغاية.. وهذا بالتبعية يعني أن أبحث عن الحب سريعا.. وهذا ما حدث بالفعل حين أحببت فتاة وأنا لم أبلغ الـ 18 بعد.. إنها الفتاة الوحيدة التي أحببتها طوال حياتي.. فأنا لم أعرف أي أنثى غيرها أصلا.. كنت أصادفها كثيرا كونها تعيش في بيت قريب من بيتنا.. وهي فتاة يتيمة أيضا تبنتها إحدى الأسر وأحسنت معاملتها.. يبدو أن نظراتي الحزينة وشرودي الدائم وقضاء وقتي بالقراءة قد أثاروا انتباهها.. كما أن علمي بأنها يتيمة بدورها قد ساهم كثيرا في تعلقي بها كونها تفهم الشعور جيدا أن تفقد والديك في سن صغيرة.

المهم أنني صارحتها بحبي ذات مرة وتحدثت معها عن مدى تعلقي بها.. أخبرتها أنها كل حياتي ولا حياة لي أصلا من دونها.. وكحال أي أنثى تجد الصدق في عين من يحبها.. فقد أحبتني بالمقابل.. وعندما اطلعتها على قوة ذاكرتي.. ذُهلت رغم أنها قد سمعت عني شيئا كهذا على حد قولها.. لكن الأمر يختلف حين ترى الأمر واقعا أمام عينيك.. ففي البداية لم تصدقني.. وظنت أنني أمارس لعبة ما.. لكنني أثبت لها ذلك بسهولة بالغة حين طلبت منها أن تتحدث بضع دقائق.. ثم رحت أكرر ما قالته حرفيا.. فانبهرت تماما وتمنّت ألا يعلم أحد بموهبتي الغريبة تلك كي لا يتهموني بأني مصاب بمس من الجن كونه أقرب التفاسير دوما للبسطاء من الناس.. لكن.. سبق السيف العذل ([16]).. فقد كان الكل يعرف بالأمر.. ولحسن الحظ أن حبيبتي لم تكن مثل الباقين.. ولم تتهمني بالسحر أو المس.

لقد تزوجت من تلك الفتاة بعد شهور قليلة كوننا كنا في سن زواج أصلا حسب معايير ذلك الزمن.. حيث وافق الرجل الذي تبناها على زواجنا ولم يعترض.. ربما لأنه ضاق ذرعا بوجودها كونه فقيرا كحال معظم الناس في تلك الفترة وقد ندم على شهامته في تبنّيها.. وربما لأنه وجد أنني شاب خيّر ولم يصدق الشائعات التي انتشرت عني.. لا أعلم.. لكنا تزوجنا وهذا هو المهم.. وانتقلنا بعد سنوات ومع تدفق النفط إلى منطقة (الفيحاء) الحديثة العصرية والتي عشت فيها

حياة هادئة لا أفعل فيها شيئا سوى الذهاب إلى عملي كحارس لإحدى المدارس.. تلك الوظيفة التي ساعدتني كثيرا على قراءة كل ما يقع تحت يدي من كتب.. لأعود بعدها إلى البيت وأقضي أوقاتا هادئة مع زوجتي.. وأحيانا أقرأ المزيد والمزيد من الكتب.

إلى أن جاءت تلك اللحظة الساحرة التاريخية التي وقع فيها ذلك الكتاب بين يدي وغير حياتي إلى الأبد!!!.. كتاب جاء به أحد التجار إلى (الكويت) وأهداه لمكتبة (الرويّح) التي كنت أزورها باستمرار.. كتاب يتحدث عن العلم الكهنوتي الغامض الذي كان لا يزال يحبو في بداياته.. وأعني بذلك.. الكمبيوتر ([17])!!!.. فكانت هذه عصا الساحر التي لامستني.. لتنقلب حياتي رأسا على عقب.. فقد كففت عن الأكل.. عن الشرب.. عن النوم.. غرقت في لجة الإدمان اللذيذ لهذا الاختراع المذهل.. شعرت وكأنني وجدت حبي الضائع.. و.. عندما يتمدد العقل لاستيعاب فكرة جديدة فإنه لا يعود أبدا إلى حجمه الطبيعي.. ويصبح حينها أوسع من السماء.

لقد أهملت العالم كله.. أهملت زوجتي.. أهملت طفلي الذي أنجبته منها.. فكانت المسكينة تتذمر طوال الوقت وتصفني بالأناني غير المؤهل أن أكون زوجا وأبا كوني غارقا في عالمي الخاص بين الكتب ليل نهار.. وراحت تلوم نفسها بالزواج من شخص معقد مختلف عن الآخرين مثلي.. ويبدو أن إهمالي هذا قد جاء بما هو متوقع.. فلم يعد بوسعها البقاء معي.. إذ خرجت من البيت عام 1958 ولم تعد منذ ذلك الحين.. نعم.. أنا لا أنسى شيئا.. بل وأستطيع أن أتذكر لحظة خروجها وماذا كانت ترتدي وما قالته لي حرفيا قبل خروجها.. لكني سأصاب بالملل لو كتبت كل التفاصيل الدقيقة هذه.. فأنا لا أكتب هذا الكلام لأتذكره فيما بعد كما يفعل كل من يكتب مذكراته.. بل أكتبه من باب الفضفضة.. لأن لا صديق لي في هذا العالم سوى الورق والكتب.

لقد خرجت زوجتي وألقت علي بمسؤولية ولدي.. وطلبت مني الطلاق فيما بعد.. فمنحته لها دون أن أخبر ولدي بشيء.. ثم سمعت لاحقا أنها تزوجت من شخص خليجي الجنسية وسافرت معه إلى بلده حيث استخرج لها هناك وثيقة جديدة باسم جديد.. فأصبح لا وجود لها في (الكويت) كوني لم أكن قد استخرجت لها أي إثبات شخصية حتى ذلك الحين.. وقد كان خروجها عارا علي بالطبع مع سمعتي السيئة.. لذا آثرت الصمت ولم يعلم أحد بأمر طلاقنا وخروجها من حياتي إلى الأبد.. خاصة أنها يتيمة لا أهل لها ولا أحد سيسأل عنها سوى ولدي الذي كان يبلغ من العمر 10 أعوام حينها.. إذ ظل يسأل عنها باستمرار وأنا أكتفي بالقول إنها رحلت وتركتنا.. فيبكي وتنتكس حالته النفسية ويرجوني أن أعيدها.. لكني ظللت أؤكد له بدوري وبحنان شديد أن الأمر انتهى.. ولا يمكن إصلاح ما فات.

المهم أنني عشت مع ولدي في بيتنا هذا.. وغرقت حتى النخاع في الكتب العلمية التي كنت أنحت في الصخر كي أعثر عليها.. حتى إننا عشنا على حافة الفقر بسبب ذلك.. فالأمر لا يتعلق بالذهاب إلى المكتبة وشراء كتاب.. بل البحث عن كتب متعلقة بالكمبيوتر!!!.. وكلمة (كمبيوتر) كانت مجهولة تماما حتى بالنسبة للأجنبي.. لذا لم يكن الأمر سهلا أبدا.. لكني ظللت أنجح لحسن الحظ في العثور على كتب أخرى وأخرى تتحدث عن هذا الجهاز الساحر.

بعد شهور قليلة.. وبفضل ذكائي الشديد وذاكرتي الفوتوغرافية.. بدأت الصورة تتجمع في ذهني.. صورة جهاز كمبيوتر أقوم بصنعه بنفسي لغرض غريب جدا وبسبب فكرة ظلت تلح على عقلي باستمرار رغم أنني لم أكن أعرف مدى إمكانية تطبيقها!!!.. فقد قرأت في أحد الكتب أن الذكريات مجرد نبضات كهربائية خافتة تعبر أجواء المخ من خلية لأخرى.. وهذا ما جعلني أطرح سؤالا مهما.. فإذا كانت الذكريات بهذه الصورة.. لماذا لا يمكننا التقاطها وترجمتها؟ !!.. لماذا لا

أستطيع أن أشاهد ذكرياتي على شاشة الكمبيوتر مثلا؟ !!.. أعلم أن المخ البشري أعقد صورة من صور الحياة المعروفة في الكون حتى الآن.. وتحليل نبضات المخ المتعلقة بالذكريات عمل من ضرب الخيال.

([18]).. لكن ربما الأمر ليس مستحيلا على رجل يمتلك عقلا كعقلي مهما بدا ذلك عسيرا.. لكن هذا يعني أن علي أن أدرس جهازا لا أملكه أصلا.. وهو جهاز رسم المخ الكهربائي!!!.. لذا قمت بعمل جبار بتجميع كل ما أمكنني الحصول عليه من كتب عن ذلك الجهاز.. وقد كانت كلها باللغة الإنجليزية.. إلا أن حاجز اللغة لم يكن مشكلة أبدا.. فقد تعلمت قراءة اللغة الانجليزية بالكامل منذ زمن وفي أيام قليلة حين قرأت قواميسها المتخصصة وباتت مفرداتها مطبوعة في ذاكرتي كالعادة.

لقد اقتضى مني الأمر جهدا لا يوصف وأقداحا عديدة من القهوة وأوقاتا تخللها الكثير من الفشل والاحباطات المستمرة في صنع جهاز كمبيوتر مع طريقة ما تسمح لي أن أترجم ذكرياتي إلى صور متحركة تظهر على شاشته.. خاصة أنني لم أكن يوما خبيرا في الإلكترونيات أو الكمبيوتر.. وكل ما أعرفه هو من خلال قراءاتي فحسب.. هذا إلى جانب ذكرياتي الحزينة التي تسيطر على عقلي.. فكيف تعمل وتبدع وأنت تشعر باكتئاب مزمن؟!!.

وبسبب الجهد الهائل والتركيز المفرط الذي بذلته متحديا الاكتئاب المستمر الذي أعيشه.. لم أتعلم من درس إهمالي لزوجتي ومغادرتها حياتي إلى الأبد.. فكررت الخطأ مع الأسف.. وانشغلت تماما عن ولدي الذي لم أكن أمنحه الاهتمام المطلوب أو أقضي معه وقتا كافيا.. حتى حين كان يغيب ساعات طويلة خارج البيت ويعود ليلا ليجدني في غرفتي وقد أغلقت بابها بالمفتاح.. فكان يسألني كثيرا عمّا أفعله.. لكني لم أخبره أبدا.. ولا أعرف السبب وراء إخفاء الأمر عنه.. كنت أعيش في عالمي الخاص ولم أرغب أن يقتحمه أحد.. حتى لو كان ولدي الوحيد.. كم أشعر بالذنب لذلك.. كم أشعر بالذنب!!!.

المهم أنني في النهاية.. وبعد جهود جبارة لا تصدق.. وبفضل ذاكرتي الخارقة وذكائي الشديد.. لاحظت أن الأفكار عموما -وليس فقط الذكريات- لها تردد معين يمكننا قياسه.. ثم على جهاز الكمبيوتر الذي صنعته أن يعيد تنسيق تلك الترددات على شكل صورة متحركة محددة المعالم تظهر على الشاشة.

لماذا كنت جائعا إلى هذا الاختراع رغم أن كل شيء مطبوع في ذاكرتي أصلا ولن أنساه؟!.. لأن الذكريات الحزينة قتلتني قتلا.. فحياتي لا تحوي أي ذكريات سعيدة سوى لحظات نادرة للغاية.. كنت أعيش ذكريات موت والديّ لحظة بلحظة رغم مرور سنوات على موتهما.. أعيش ذكريات الفقر في بيتنا القديم.. أعيش ذكريات إيذاء الصبية لي.. حقا إن الذكريات هي التي تبقيك دافئا من الداخل.. وهي التي تمزقك بالوقت نفسه!!!.

ما علاقة هذا الكلام بأبحاثي وجهودي في صنع جهاز كمبيوتر ومن ثم مشاهدة ذكرياتي على شاشته؟؟!!.. ستتضح الصورة بعد قليل.

المهم أن جزاء العَرَق مجز دائما كما يقولون.. ففي اليوم الموعود.. حين شعرت أنني اقتربت جدا من تحقيق هذا الحلم.. جلست على مقعدي في المكتب وربطت الأقطاب التي صنعتها على دماغي.. ثم ضغطت زر جهاز رسم المخ.. وشرعت أركز ذهني في صورة ثابتة محددة.. صورة أمي رحمها الله.. وأمام عيني المذهولتين.. رأيت صورتها تتشكل ببطء على شاشة الكمبيوتر.. مذبذبة

نعم.. مهزوزة مليئة بالخدوش نعم.. لكنني فعلتها!!!.. فعلتها!!!.. وبالطبع فقد اختفت الصورة من على الشاشة فجأة لأن عقلي كف عن التركيز حين رأيت نجاح اختراعي أمام عيني!!!.

كان نجاحا هائلا لا يصدق.. لقد وضعت يدي على أول الطريق دون شك.. فنزعت الأقطاب عن رأسي وشرعت أرقص في أرجاء الغرفة مبعثرا الأوراق من حولي.. لم تكن الفرحة تسعني.. فكانت ربما اللحظة الوحيدة في حياتي التي شعرت فيها بسعادة غامرة جعلت قلبي يرقص في مكانه.. لقد

تفوقت على كل العلماء وكل من يحمل شهادة دكتوراه ([19]).. لكني كنت أعلم أنها مجرد البداية فحسب.. وأنه لا يزال هناك الكثير لإنجازه كي أستفيد من هذا الاختراع.

وهكذا مرت الأيام.. وازددت اتقانا لعملي بسرعة.. فقد تمكنت من تسجيل بعض ذكرياتي على بكرات سينمائية.. لتصبح لدي بكرة مدتها بضع دقائق لأبي وأمي ولحظاتي الجميلة القليلة معهما.. ولم أكتفِ بهذا بالطبع.. بل قمت بالهدف الرئيسي من هذا الاختراع.. أن أصنع الذكريات السعيدة.. حتى وإن كانت غير حقيقية!!!.. نعم.. كان هذا هو الهدف الرئيسي من اختراعي بالفعل.. إذ رحت أختلق قصصا كاملة في ذهني.. وكأنها أفلام.. أفلام بلا ممثلين ولا مخرجين ولا مصورين.. أفلام وُلدت من خلايا مخي وحدها.. لكن دائماً كانت الصورة تهتز.. ووجوه الشخصيات تتغير عدة مرات في نفس اللحظة.. وحواف الشاشة تظل مهزوزة غير واضحة.. كانت المشكلة هي مشكلة تركيز فقط.. لكنها مشكلة كبيرة تتسبب في سوء جودة ما أراه على الشاشة وأقوم بتسجيله.. فمن المستحيل أن تتخيل ساحة قتال مثلا يتعارك فيها جيشان.. من المستحيل أن تحافظ على التتابع في خيالك.. من ضرب من؟!.. وأين ذهب سلاح هذا؟؟!!.. ومتى سقط هذا؟؟!!.. هذه الأشياء تكون رمزية عند التخيل.. لكنها على الشاشة تغدو مستحيلة تقريبا!!!.. فالمباني مثلا تتحول إلى بقعة رمادية لأنك غير قادر على تخيل كل نافذة فيها.. وحتى حين حاولت أن أرسم ذكريات جميلة مع والديّ في بيت جميل يطل الثراء والدفء من كل أركانه.. تنبهت أن علي تخيّل أمي وهي تعيش برفاهية وترتدي ثيابا فاخرة.. وأن أتخيل أبي يفعل الشيء ذاته.. وأتخيل البيت بتفاصيله.. و.. إلخ.. خاصة أن هذه ليست أحداثا حقيقية محفورة في ذاكرتي.. بل هي خيالات يجب أن يصنعها عقلي بدقة شديدة لدرجة تمكنني من نقلها إلى الشاشة كي أشاهدها باستمرار وتثبت في ذهني كذكريات سعيدة -وإن كانت مزيفة- لتطغى على ذكرياتي الحزينة التي جعلت مني كتلة اكتئاب تمشي على قدمين.

لكن تبين أن هذا مستحيل مع الأسف.. فكوني أمتلك ذاكرة حديدية لا يعني أنني قادر على صنع (خيال حديدي) إن صح التعبير!!!.. لذا برزت مشكلة حقيقية على السطح.. وهي أن الاستفادة من هذا الاختراع عسيرة جدا.. وربما سأحتاج أن أكون كاهنا لا يفعل شيئا في حياته سوى التأمل والتركيز وإطلاق العنان لخياله.

ومن هنا بدأت في البحث والقراءة المستمرة للعثور على حل لتلك المعضلة.. فوجدت أن الحل بسيط للغاية.. فماذا لو ساعدت ذاكرتي على التخيل من خلال وضع الأشياء الرئيسية التي أريد تخيلها أمام عيني ليتفرغ عقلي بعدها لتخيل الأحداث فقط وليست الشخصيات؟!!!.. كيف؟!.. لقد بذلت جهدا خارقا للعثور على رجل مختص بصنع تماثيل الشمع.. وقد نجحت في ذلك بالفعل بعد أن عثرت على فنان مختص في هذا المجال من إحدى الدول العربية.. ثم طلبت منه أن يصنع لي 5 تماثيل لأهم الأشخاص الذين فقدتهم في حياتي.. أمي.. وأبي.. وزوجتي.. وتمثال يجسدني أنا في فترة شبابي.. والسيد (مرزوق).. الرجل الأسود غليظ الملامح الذي ساعدني كثيرا

في طفولتي.

لا أنكر أنني دفعت مبلغا فادحا مقابل صنع التماثيل.. مبلغا أفلسني وجفف رصيدي المالي بعد أن اضطررت إلى الحصول على قرض بنكي.. لكن فكرتي هذه حققت نجاحا باهرا.. إذ لم أعد أحتاج لأتخيل وجود هؤلاء الأشخاص المهمين حولي لأصنع معهم ذكريات سعيدة.. بل كانوا مجسدين أمامي بتماثيلهم.. فسهلت مهمتي كثيرا.. كان كل ما علي فعله بعد ذلك هو توصيل أقطاب جهاز تسجيل الذكريات إلى رأسي.. ومن ثم الجلوس والنظر إلى التماثيل وتخيل مشاهد ومواقف جميلة أعيشها معهم لأراها على الشاشة.. كنت أريد أن أصنع ذكريات جميلة بأي ثمن!!!.. فلا يوجد لدى الإنسان أغلى من ذكرياته.. وإن ظن أحد أن ما أفعله سخيف.. فليفكر كيف ستكون حياته لو كان مريضا بذلك المرض اللعين ويملك ذاكرة فوتوغرافية لا تسيطر عليها سوى اللحظات الحزينة!!!.

وقد قرأت فيما بعد بالصدفة عن فكرة (الهولوجرام) ([20]) أو (الصورة ثلاثية الأبعاد) التي ستبدو واقعية جدا لكل من يراها.. فانبهرت كثيرا بهذا الاختراع المذهل.. ودرسته بعناية..

ولأنني عبقري وأمتلك ذاكرة مذهلة.. فقد استوعبت كل التفاصيل بعد دراسة قاربت ال 3 سنوات.. حيث كانت هذه الفكرة أفضل ما يمكن عمله لصنع ذكريات ستبدو حقيقية تماما وكأنني عشتها من قبل.. وليست مجرد لقطات تعرض على شاشة الكمبيوتر.. ستظهر كل الشخصيات التي أحبها مجسدة أمامي.. فتمشي حولي.. وتمارس حياتها كما أود أن أتخيلها وأندمج في تفاصيلها لكن دون صوت بالطبع.. فهي مجرد صور متحركة.. وقد قمت بتنفيذ هذه الفكرة عمليا.. ونجحت بتحقيقها سريعا.. فهي لم تكن أصعب من اختراع جهاز قراءة الأفكار وترجمتها.. أو جهاز الكمبيوتر الذي صنعته.

ولا أنكر أنني كنت أشطح بالخيال أحيانا بعد أن تمكنت من اختراعاتي تلك بصورة كاملة وبت أتحكم فيها باحترافية.. فأتخيل نفسي مثلاً أضرب وأقتل كل من آذوني في طفولتي.. ليتجسد المشهد كاملا في أي مكان أريده في البيت بعد أن غرست أنابيب بث (الهولوجرام) الدقيقة في جدران معظم الغرف.. والواقع أنني لم أصنع تماثيل من أي نوع للأولاد الذين آذوني لأنني لم أهتم كثيرا بأن تتجسد ملامحهم كاملة أمامي.. فكانت صورهم الرمزية في ذاكرتي كافية بالنسبة لي.. الأمر شبيه بما يحدث لك حين تتخيل أحد أقاربك أو أصدقائك.. إذ لا يمكنك أن تتخيله بأدق تفاصيله.. لكن توجد له صورة رمزية في ذهنك تذكرك به متى ما أردت أن تتذكره.. وقد كنت سعيدا للغاية وأنا أشاهد ذكريات وهمية صنعها خيالي وأنا أنتقم من هؤلاء الأولاد وأضربهم.. وأحيانا أتخيل السيد (مرزوق) يضربهم وينتقم لي منهم.. إنه رجل طيب القلب رغم مظهره المخيف.. وقد توفي منذ سنوات طويلة.. لكني صنعت له هذا التمثال لأدخله إلى ذكرياتي الخيالية السعيدة.. هذا الرجل الطيب يستحق أن يكون في عالمي الجديد.

وبسبب استمتاعي بما كنت أفعله.. حاولت أن أجعل التسجيلات -التي نسجها خيالي وحولتها بعدها إلى صور هولوجرامية- أكثر واقعية وإبداعا.. فعادة ما تكون مهمة أنابيب بث (الهولوجرام) إظهار صورة ما.. أما تلك الموجودة في غرفة التماثيل فقد كانت مهمتها عكسية.. وهي أن تنقل صورة زائفة للغرفة بكل تفاصيلها لكن بدون التماثيل!!!!.. ولو جرب أحد وذهب لمكان التمثال الخالي ووضع يده عليه لتفاجأ بوجوده رغم أنه لا يراه!!!.. الأمر لا يختلف كثيرا عن فكرة طاقية الإخفاء.. أي أنني حين أشاهد تسجيلا ثلاثي الأبعاد من نسج خيالي لأمي وهي تملأ أجواء البيت علي وكأنها لا تزال على قيد الحياة.. كنت أضع صورة هولوجرامية تظهر لي غرفة

التماثيل دون تمثال أمي.. حتى أعيش هذا الخيال الجميل وأشعر به وكأنه واقع.. نعم.. لقد انجرفت مع اختراعي هذا وتملكتني نشوى عجيبة جعلتني أدمن حياة الخيال.. كل هذا بفضل جهاز قراءة الأفكار الذي اخترعته ونقلت من خلاله أفكاري على شاشة الكمبيوتر أولا.. ثم في عالم (الهولوجرام) الذي جسد كل خيالاتي أمامي في أي مكان أريده في البيت.

إلى أن جاء ذلك اليوم الأسود حين شاهد ولدي بالصدفة تسجيلا هولوجراميا لأحد جرائم القتل التي ارتكبتها في خيالي بحق أحد الأولاد الذين آذوني في طفولتي.. فشعر برعب هائل.. وواجهني بما رآه.. بل وصدمت حين أخبرني أنها ليست المرة الأولى التي رآني فيها ارتكب جريمة قتل على حد قوله.. لكنه كان دوما يخشى مواجهتي.. إلا أنه لم يعد يحتمل أكثر.. فحاولت أن أشرح له.. أن أخبره أن كل ما رآه هو من وحي الخيال.. لكن الحديث عن أمور مثل (كمبيوتر) و(هولوجرام) في ذلك الزمن ضرب من الجنون.. لذا لم يصدقني حين شرحت له الأمر.. ولم يمنحني فرصة الاستفاضة في الشرح وتوضيح الأمر.. حتى إنه اتهمني بأنني أتحدث مع الجن بلغة غريبة غير مفهومة!!!.. فقد سمعني بالصدفة ذات مرة أتحدث باللغة اللاتينية التي تعلمتها من قراءاتي وحاولت ممارستها.. ليظن أنها لغة مرتبطة بالجن.. فخرج من البيت مرعوبا وهو يقسم لي أنه لن يعود أبدا.. واتهمني قبل خروجه بأنني قتلت والدته وأنها لم ترحل كما كنت أخبره.. وشجعه على هذا الاعتقاد عدم اتصال والدته وسؤالها عنه إطلاقا منذ رحيلها مع الأسف الشديد.. فنحن نتحدث عن زمن لم تكن فيه خطوط الهاتف منشرة بصورة كافية لتقريب المسافات بين الناس.

لقد حاولت أن أمنع ولدي عن الرحيل لكني عجزت.. ولم أعرف أين ذهب وكيف عاش بعد ذلك.. لذا أبلغت الشرطة بالأمر وتوسلت إليهم أن يعثروا عليه.. فحتى لو اتهمني بالقتل أمام الجميع.. سأتمكن من إثبات كل شيء لهم بفضل التسجيلات التي أمتلكها مع إمكانية تسجيل خيالاتهم أو ذكرياتهم نفسها في أي وقت إن أرادوا ذلك.. وأجعلهم يعيشون التجربة لحظة بلحظة.

وقد عثر رجال الشرطة على ولدي بسهولة.. إذ كان يقيم في (ثانوية الشويخ) التي كانت تحوي سكنا للطلبة آنذاك.. فذهبت وتوسلت إليه أن يستمع إلي.. لكنه لم يمنحني الفرصة إطلاقا للشرح.. وأقسم بأنه يتبرأ مني ليوم الدين على عكس المعتاد حين يتبرأ بعض الآباء من أبنائهم!!!.. لكني لا ألومه كوني لم أهتم به يوما وأهملت تربيته وقتلت الكثير من الناس كما يظن.. منهم والدته على حد قوله!!.. كما أخبرني أنه قد رأى التماثيل في تلك الغرفة يوما بعد أن سرق مفتاحها وتسلل إليها دون علمي.. فتيقن أن الأمر مرتبط بالسحر أو الجن.. حاولت مرارا وتكرارا أن أشرح له.. لكن كان الوقت متأخرا للغاية.. لقد كبر ولدي ولم يعد بحاجة إلي الآن.. بل كان بحاجة إلي في طفولته وقد خذلته ودمرت أسرتي بالكامل من وجهة نظره التي قد تكون صحيحة.. لا أعلم إن كان يجب أن ألوم نفسي أم لا.. فأنا لست كباقي البشر.. إنني مختلف عن الجميع.. وربما القلة القليلة الذين يعانون من هذا المرض يعرفون جيدا ما أتحدث عنه.

وهكذا عشت بعزلة سنوات طويلة بعد رحيل ولدي.. حيث علمت فيما بعد أنه قد تزوج.. وأنجب أبناء كبروا وتزوجوا بدورهم وصار لهم أبناء.. لكن لم يفكر أحد منهم بزيارتي.. لهذا تحطمت نفسيا.. وانهمكت تماما بصنع ذكريات غير حقيقية من خيالي.. فأدمنت الحياة وسطها للهروب من الواقع.. حتى زهدت الدنيا بأكملها وبت أعيش حياتي اليومية وسط (الهولوجرام) وقد قررت ألا أخبر أحدا بأمر اكتشافي العلمي.

كنت أطبخ لنفسي.. أقوم بالتنظيف بنفسي.. أعيش خارج الزمان والمكان.. فلا أخرج من البيت إلا للضرورة القصوى.. إلى أن شعرت بنواقيس الخطر وأدركت في فترة من الفترات أن ما أفعله سيقودني إلى الجنون.. خاصة بعد أن بدأت -لا شعوريا- أحاول التحدث مع الشخصيات التي تظهر في تسجيلات (الهولوجرام).. أحاول أن أتحدث مع صورة أمي ثلاثية الأبعاد.. أرجوها أن تأخذني لأعيش معها في عالم (الهولوجرام) هذا!!!.. نعم.. فقد بدا وكأنه عالم موازي يعيش فيه الناس سعداء بينما عالمي الجحيم بعينه.

لقد كنت قريبا جدا من الانفصال التام عن الواقع مثلما يحدث لمدمن المخدرات.. وهذه لم تكن المشكلة الوحيدة.. إذ يبدو أن الذكريات الحقيقية ستظل تطفو على السطح في النهاية مهما فعلت.. فما الفائدة من صنع ذكريات خيالية لأبي وهو يجلس معي في البيت.. ثم أشتاق إليه أكثر وأبكيه وتطفو ذكريات وفاته والمقبرة والعزاء على السطح مرة أخرى وأخرى؟!!!.

لذا قررت إنقاذ عقلي وتغيير نمط حياتي بعد أن كبرت في السن.. فقمت بغلق غرفتي وختمها إلى الأبد.. تلك الغرفة التي احتوت على كل عبقريتي.. جهاز قراءة الأفكار وتحويلها إلى الشاشة.. الكمبيوتر.. مخطوطات ورسومات صنع أنابيب بث (الهولوجرام) الدقيقة.. ستظل تلك الأنابيب مغروسة في الجدران لكن لن ينتبه إليها أحد.. ثم قمت بعد ذلك بجلب خادمة لتقوم بأعمال التنظيف والطبخ لأرتاح قليلا بعد هذا العمر وأقضي وقتي بالقراءة التي كانت الهروب الوحيد الصحي ربما من هذا العالم.

ومع الأسف.. فبعد سنوات قليلة.. علمت بإصابتي بالخَرَف.. وب. (آلزهامير) تحديدا.. وفوجئت بأنني أفقد ذاكرتي وقدرتي على التفاعل مع المحيط الخارجي.. ولأول مرة في حياتي بدأت أفهم معنى كلمة (نسيان) حين بدأت الخادمة تذكرني بأشياء يستحيل أن ينساها الإنسان العادي!!!.. يبدو.. يبدو أنه كلما كبرت.. اضطررت إلى التخلي عن المزيد.. حتى لو لم يكن لديك ما تتخلى عنه أصلا!!!)).

كانت هذه مقتطفات مما قرأناه.. مقتطفات حاولت أن ألخص فيها أهم ما قاله جدي مع بعض التصرّف والشرح المستفيض كي تتضح الصورة كاملة لكم.. ولا أنسى أن أذكر أن الفقرة الأخيرة تحديدا قد كتبتها كلها بنفسي لتتماشى مع كلمات جدي حتى لا تخرج لكم مذكراته مقتضبة غير واضحة.. أقول هذا الكلام وأنا أتنفس مرة أخرى!!!.. فلا أذكر أنني تنفست أثناء قراءتي لتلك المذكرات.. كنت أخشى أن يفوتني حرف.. حتى بدوت مع الممرض بهذا الصمت القاتل وكأننا أكثر أهل الأرض حكمة!!!.. نعم.. الصمت رمز الحكمة بالفعل.. فأعماق المحيط صامتة.. الفضاء صامت.. الموت صامت.. جدي كان صامتا أغلب فترات حياته تقريبا.. يبدو أن السخافة لا تنبع إلا من الكلام!!!.. الممرض يقطع الصمت ليقول بذهول:

-أنا.. لم.. أسمع.. عن.. شيء.. كهذا.. من.. قبل!!!!.

لم أتمكن من الرد.. لأن دموعي كانت تتجمع وتتساقط بألم غير مصدقة ما قرأته للتو.. أنظر إلى جدي النائم في سريره واللوعة تحولت إلى نار تحرق قلبي ألما على حاله.

هناك آلام تجرحك وآلام تغيرك.. وهذه الأوراق قد غيرتني وغيرت مفاهيمي للحياة بأكملها.. لم أتصور يوما أن هذه هي الحقيقة!!!.. مرض؟!.. مجرد مرض نادر لم يسمع به أحد جعل جدي عبقريا يسبق زمنه؟ !!.. لقد.. لقد صنع جهاز ترجمة الأفكار وبثها على الشاشة.. وهو الاختراع الذي لا يزال العلم طفلا يحبو محاولا اكتشافه حتى يومنا هذا.. وصنع أنابيب بث (الهولوجرام)

في زمن كانت فيه هذه الكلمة مجهولة تماما.. بل وصنع جهاز كمبيوتر أيضا.. هذا لا يصدق.. لا يصدق!!!.. لكني لن أفتش عن حقيقة أخرى.. فلا حقيقة سوى هذه كما هو واضح.

الممرض يسألني بخفوت حزين:

-أنا ما زلت عاجزا عن الفهم.. كيف كنا ندخل الغرفة ونرى التماثيل غير موجودة في مكانها؟!.

فأرد بألم والدموع تغرق وجهي:

- لقد ذكر جدي ذلك الأمر في مذكراته.. التماثيل كانت موجودة في مكانها طوال الوقت ولم تتزحزح على الإطلاق.. لكن كنا نرى صورة هولوجرامية للغرفة بدون التماثيل.. تماما كطاقية الإخفاء.. لقد كان كل ما نراه في البيت من تماثيل تتحرك حولنا هو في واقع الأمر لمحات من خيالات جدي التي قام بتسجيلها وبثها بواسطة الصور المجسمة ثلاثية الأبعاد أو (الهولوجرام).. فعل جدي كل هذا ليصنع لنفسه ذكريات سعيدة -وإن كانت غير حقيقية- بدلا من الذكريات القديمة التي التهمته حزنا من الداخل.. التماثيل لم تتحرك ولم تترك مكانها أبدا.

ساد الصمت مرة أخرى سوى من صوت بكائي.. يا إلهي.. لم أعرف يوما أهمية الذكريات السعيدة.. ولم أشعر يوما بنعمة النسيان.. نعمة النسيان التي تمنحنا القوة لنستمر في حياتنا ونعمل من أجل مستقبلنا.. تخيل أن يموت أحباؤك لكنك تظل تتذكر لحظات موتهم الحزينة بأدق تفاصيلها وبصورة يومية دون أن يلعب الزمن دوره في نسيان الكثير من تلك التفاصيل كما يحدث معنا دوما.. فالإنسان يتعافى نفسيا لأنه يصنع دوما ذكريات جديدة تنسيه القديمة.. لكن ذكريات جدي القديمة لم تكن لتنمحي أبدا بسبب مرضه النادر.. كما أن اللحظات السعيدة في حياته كانت قليلة جدا.. لذا عاش دوما حزينا مكتئبا!!!.

كم بت أكره المجتمع القديم المحيط بجدي.. لقد كان مجتمعا جاهلا.. وأسوأ أنواع الجهل أن ترفض شيئا لا تعرف عنه أي شيء!!!.. الدموع تنهمر من عيني لدرجة أنني بت عاجزة عن التفكير.. لأنهض متجهة ناحية جدي الذي لم يشعر إطلاقا بما يجري حوله بطبيعة الحال.. فاحتضنته بكلتا يدي.. ووضعت رأسي على رأسه.. ليغرق شعره الأبيض بدموعي.

رحت أتحدث إليه.. أرجوه أن يسامحني.. أمسك يده لأقبلها بنهم.. أحاول أن أكون في محيط بصره لأذكّره -ربما- بجدتي التي أشبهها كثيرا بعد أن تأكدت من ذلك في سياق مذكراته.. لربما يتحرك شيء في داخله.

لكن.. لم يبدِ أي استجابة أو ردة فعل.. يبدو أن استجابته في المرة السابقة كانت ضربة حظ ليس أكثر.. مفاجآت غير متوقعة كهذه تحدث أحيانا مع مرضى (آلزهايمر).. لقد انتظر سنوات طويلة فقط ليحرك يديه وينظر إلي وبشكل فاجئنا جميعا.. فكم الوقت سيحتاجه ليفعل ذلك مرة أخرى؟ !!.. عندما تذكرت تلك النقطة.. أصبت بخيبة أمل شديدة زادت من بكائي وأنا أحتضنه دون توقف.. إلى أن هدأت قليلا وأنا مغمضة العينين.. أشعر بأنفاسه.. أشم رائحته.. لا أعرف لماذا يملك العجائز نفس الرائحة.. إنها رائحة أبي أيضا رحمه الله.. و.. أثناء غرقي في تلك الخواطر.. خرج منها تساؤل مفاجئ لم يكن في الحسبان.. فسألت الممرض وأنا أمسح دموعي:

- كيف عادت أنابيب البث لتعمل بعد كل هذه السنوات وتبث لنا تسجيلات (الهولوجرام) القديمة؟!.. وأين هي هذه الأنابيب أصلا؟!.. أين وضعها جدي بالضبط؟ !!.. هل.....

سكتّ فجأة وقد شعرت أنني أعرف الجواب.. لأنهض من مكاني وأتجه ركضا ناحية المتحف..

أشغلت الكشاف في هاتفي.. ثم صوبت حزمة من الضوء على الجدران ورحت أنظر بكل دقة.. أرى نقاطا دقيقة جدا في الحائط وكأنها مسامير تم دقها إلى أن انغرست في الداخل فلم يعد يظهر إلاّ الرأس الذي لا يمكن أن يلاحظه أحد بسهولة.. يبدو أن هذه هي أنابيب بث (الهولوجرام).. الأمر بسيط للغاية.. لو كنا قد قمنا بصبغ البيت بأكمله لغطى الصبغ على تلك الأنابيب ولما ظهر لنا شيء.. كان سيموت السر إلى الأبد!!.

ظللت أبحث في الغرفة بلوعة وغصة في حلقي.. الممرض يتبعني ليفهم ما أريد فعله تحديدا.. لكني لم أكترث لوجوده.. أبحث.. أنظر.. أمسح المكتبة بشعاع الضوء المنبعث من هاتفي.. ثم أتجه ناحية التماثيل.. أقوم بخلع الثياب عنها واحدا تلو الآخر دون أن أشعر بالخجل هذه المرة.. هل.. هل يعقل أن يكون هذا السبب؟!.. نعم.. التمثال الذي يجسد جدي في شبابه.. إنه يحوي زرا صغيرا للغاية في كتفه.. هل هذا الزر هو مفتاح التشغيل؟!.. لكني لا أذكر أنني لمست هذا الجزء من التمثال.. سألت الممرض بأسى:

-أنت دخلت الغرفة في غيابي منذ بضعة أيام وتحسست التماثيل.. ربما من باب الفضول.. أليس كذلك؟!!.

سألني بدهشة:

-كيف علمت؟!!.

قلت وأنا أشير بشعاع هاتفي إلى نقطة محددة في كتف التمثال:

-لقد ضغطت على هذا الزر.. إنه مفتاح التشغيل.. يبدو أنه متصل بكل نقاط البث في البيت.. لهذا كنا نرى تسجيلات (الهولوجرام) في كل مكان سوى الغرف التي لم يغرس جدي في جدرانها الأنابيب هذه.. كالمطبخ مثلا.. وغرفة الخادمة.. وغرفته الحالية التي لم يستخدمها كثيرا وينتقل إليها إلا بعد إصابته بأمراض الشيخوخة.. لكن.. يبدو أن الأنابيب قد أصابها تلف ما بعد كل هذه السنوات.. أو ربما الأسلاك المتصلة بها عبر الجدران.. لهذا لم تكن الصور الهولوجرامية تظهر باستمرار.. بل كانت تظهر متقطعة وتختفي.. لقد حدث ما حدث ورأينا ما رأينا في الأيام القليلة السابقة بسبب زر ضغطته أنت دون قصد!!!.

قال مصدوما:

-لهذا السبب لم يظهر لنا أي شيء غير عادي حين اكتشفتِ المتحف أول مرة بالصدفة.. لكن دخلته أنا في إحدى المرات أثناء غيابك بالفعل.. ورحت أتحسس التماثيل محاولا اكتشاف أي شيء غير عادي فيها.. يبدو أنني بالفعل ضغطت على زر التشغيل بالخطأ.. أعتقد أن جدران البيت بأكملها تحوي شبكة من الأسلاك المتصلة ببعضها في معظم الغرف والمرتبطة بهذه التماثيل.. لهذا بتنا نرى ما ظنناه أشباحا.. بينما في واقع الأمر.. كنا نشاهد تسجيلات مرئية مجسمة لخيالات جدك.. يا له من إنسان رائع.. يا له من رجل عبقري!!!.

قلت بأسى وانكسار شديدين:

-لقد أفنى عمره ليحقق معجزة علمية باختراعه هذا.. لكنه لم يكن سعيدا رغم كل شيء.. كانت ذكرياته تقتله وهو يعيش طوال حياته منعزلا بعيدا عن الدفء الإنساني بعد أن ظن الناس به الظنون.. تخيل أن يبتعد عنك الجميع لأنك بنظرهم ساحر وقاتل.. لكنك في واقع الأمر مريض لم تؤذِ أحدا ولا يد لك بما تعانيه.. لا أعرف ما أقول.. لا أعرف ما أقول.. لقد عرفت جدي أخيرا بعد

أن ظل مجهولا ومظلوما من المجتمع بأسره طوال حياته.. من الواضح أن مرضه هذا جعل منه شخصا رقيقا مرهف الحس.. وككل شخص حساس كان يرفض الزمن الذي يعيشه.. يرفض الواقع.. والواقع يقول أن لا مكان له فيه!!.

نهضت من مكاني وخرجت من غرفة المتحف متجهة ناحية جدي مرة أخرى.. فاحتضنته بحنان بالغ.. ورحت أهمس في أذنه اليمنى بلا انقطاع والدموع تنزل من عيني:

-سامحنا يا جدي الحبيب.. لقد ظلمناك كثيرا.. ظلمك أبي.. ظلمك أشقائي.. ظلمتك أنا.. ظلمك المجتمع بأسره.. فقط لأننا لم نكن نعرف حقيقة مرضك.. يا إلهي.. كل هذا الظلم الذي تعرضت له في حياتك.. سامحنا!!!.. سامحنا أرجوك!!!.. لا أعرف كيف.....

توقفت عن الحديث وجعلت دموعي تتحدث.. فالدموع كلمات لا يستطيع القلب أن يقولها.. أحتضن جدي بأسى شاعرة أن احتضاني الصامت هذا خير من ألف كلمة.. أما الممرض فسمعته خلفي وهو يمسح دموعه ويحاول السيطرة على نفسه.. يبدو أنه كلما يكبر الإنسان تزداد عاطفته.. لذا لم يكن بكاء الممرض غريبا.

إنني أشعر بالألم والذنب إلى درجة أن جسدي يؤلمني!!!.. لقد كرهناك كثيرا يا جدي.. وقبل أن نحبك.. خسرناك إلى الأبد!!!.. يبدو أن هناك قصة وراء كل إنسان.. هناك أسباب تجعله بالصورة التي هو عليها.. إنه ليس بهذا السلوك والعقلية لأنه أراد أن يكون كذلك.. أفكر بكل هذا وأنا ما زلت أحتضنه مغمضة العينين.. ليت أبي رحمه الله كان موجودا ليعرف ما عرفته.. كان سيعض أصابع الندم وسيأتي ليقبل يد جدي ويطلب مغفرته.

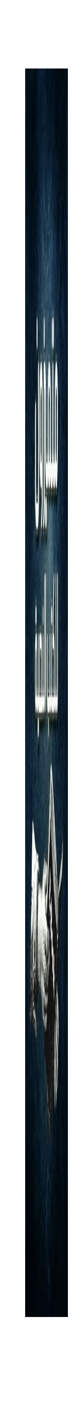
لقد تعلمت الكثير من قصتي هذه.. تعلمت أن البيت شخص وليس مكانا!!!.. وأنا في بيتي أخيرا.. بيتي الذي أحببته فجأة بعد أن كنت أخشاه كالموت ذاته.. وتعلمت أن هناك أبطالا وهناك أساطير.. الأبطال يموتون ونتذكرهم.. أما الأساطير فلا تموت أبدا.. وقصتك يا جدي أسطورة حقيقية سأفتخر بها طوال حياتي.. يبدو أن بعض الدروس لا يمكن أن نتلقاها.. بل يجب أن نعيشها!!!.

تدور الدنيا من حولي وأنا أفكر بم سيحدث الآن؟!.. لكني أطرد كل الأفكار السلبية من ذهني.. وأقرر أنني سأنتظر حصولي على الوظيفة كما هو حالي منذ تخرجي.. لن أنتظر بقلق وتوتر كما كنت في السابق.. بل سأعيش في هذا البيت سعيدة أهتم لأمر جدي وأكون بقربه طوال الوقت.. أتحدث إليه.. وأقرأ له.. وأطعمه بيدي.. ربما سيلتفت إلي مرة أخرى.. ربما سيخبرني أنه يسامحني ويسامحنا جميعا.. الممرض يجهش بالبكاء ويرجوني أن أسمح له بالاستمرار والبقاء في وظيفته إلى جانب جدي شاعرا بالأسف لحاله.. فأهز رأسي موافقة بوجه مليء بالدموع.

سأخبر أشقائي بتفاصيل تلك القصة.. وسأخبر الخادمة كذلك.. أريدهم جميعا أن يعرفوا أن جدنا كان مصابا بمرض جعل منه شخصا عبقريا.. لكنه حزين ووحيد!!!.. وأن ظنون الناس به كانت لجهلهم بمرضه فحسب.. ومن يدري.. فقد أذهب باختراعه هذا لتسجيله باسمه في الدول التي تحترم العلم.. أول اختراع من نوعه في العالم.. جهاز يقرأ أفكارنا ويجسدها على الشاشة أو بواسطة (الهولوجرام).. ربما سأجعل غرفته هذه متحفا حقيقيا يزوره أهل العلم ليعرفوا كم كان جدي عبقريا.. ربما سأفعل كل هذا تكفيرا لما فعلناه جميعا معه.. بعد أن ظننا به الظنون واعتقدنا أن تلك الغرفة ليست سوى مستودعا للجثث وممارسة السحر وتحضير الجن.. و.. متحفا للأرواح!!!.

(تم الكتاب بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب



Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) قصيدة قديمة كتبت عام 1899 تأثر كاتبها ببيت مهجور في مقاطعة (نوفا سكوشيا) (nova scotia) في (كندا) حيث أثيرت حوله أقاويل كثيرة عن الأشباح التي تقطنه، وقد تأثرت شخصيا بهذه القصيدة.. فأوحت لي بكتابة الرواية التي بين أيديكم.. آملا أن تنال إعجابكم.

[←2]

(2) مصطلح (المطبات الهوائية) نسمعه باستمرار أثناء سفرنا في الطائرة حتى بات سماعه أمرا اعتياديا للغاية.. والواقع أن سبب حدوث هذه المطبات الهوائية وجود تيارات هواء لها اتجاهات مختلفة.. فإذا تصادف وجود تيار هوائي متجه إلى أعلى بقوة.. ارتفعت معه الطائرة إلى أعلى بقوة بطبيعة الحال.. والعكس صحيح.. وهذا باختصار شديد ما يجعل الطائرة تهتز.

[←3]

(3) اضطراب الرحلات الجوية الطويلة (Jet lag) هو خلل يصيب الساعة البيولوجية للإنسان نتيجة السفر لمسافات طويلة وبسرعة كبيرة على متن طائرة نفاثة.. فعند السفر عبر عدد من المناطق الزمنية.. تتعرض الساعة البيولوجية للجسم لوقت نهار وليل مناقض للوقت الذي اعتادت عليه.. وبهذا يضطرب الجدول اليومي للإنسان من ناحية تناول الطعام ومواعيد النوم وتنظيم الهرمونات وتغير درجات الحرارة.. وعادة ما يتأقلم الجسم على الجدول الزمني الجديد خلال بضعة أيام في أغلب الأحوال.. وجدير بالذكر أن هذا الاضطراب في الساعة البيولوجية للإنسان لا يرتبط بطول الرحلة.. إنما بالتنقل بين الشرق والغرب فقط عبر المناطق الزمنية.. فالطيران مدة عشر ساعات مثلا من أوروبا إلى جنوب إفريقيا لا يسبب أي اضطراب بيولوجي بسبب الفارق الزمني البسيط بينهما.. ولكن الطيران لمدة خمس ساعات من غرب (الولايات المتحدة الأمريكية) إلى شرقها قد يؤدي إلى ذلك.

[←4]

(4) تعني بذلك جزيرة (بوفيليا) (Poveglia) الإيطالية.. وهي جزيرة صغيرة مهجورة قريبة للغاية من مدينة (البندقية) الشهيرة.. وقد تم تصنيفها كأحد أكثر مناطق العالم إثارة للرعب كونها تحمل تاريخا حافلا بالسواد.. حيث كانت هذه الجزيرة في القرون الوسطى مسرحا للعديد من الحروب.. ثم تحولت في عام 1793 إلى مكان لجمع جثث الوفيات من مرض الطاعون الذي اجتاح أوروبا بأكملها آنذاك.. حتى قيل إن الجزيرة قد شهدت دفن حوالي ألف جثة.. ويقال أيضا إن بعض الذين ظهرت عليهم أعراض الطاعون في تلك الفترة قد تم أخذهم عنوة إلى الجزيرة ودفنهم أحياء في مقابر جماعية وسط توسلاتهم.. وهو ما نشر العديد من الشائعات التي تتحدث عن مكوث أشباح أرواح ضحايا الطاعون في تلك الجزيرة حتى اليوم.. ولم يتوقف تاريخ الجزيرة السيء عند هذا الحد.. ففي عام 1922 تم تحويلها إلى مستشفى للأمراض العقلية.. حيث انتشرت الأقاويل مع مرور السنوات أن المرضى الذين يتعاقبون على المستشفى يشاهدون أشباح ضحايا الطاعون في كل مكان حولهم.. لكن لم يأخذ أحد بكلامهم بالطبع كونهم مرضى نفسيين.. وزاد الأمر سوءا حين ابتلى المستشفى بطاقم طبي كان يعامل المرضى معاملة سيئة للغاية.. خاصة أحد الأطباء الذي كان يقوم بتعذيبهم باستخدام الكهرباء والمطرقة والمسامير مع غياب رقابة الحكومة!!!.. إلى أن قام الطبيب بالانتحار دون سبب واضح حين ألقى بنفسه من أعلى موقع في المستشفى.. وبسبب السمعة السيئة للمستشفى.. قامت الحكومة الإيطالية بإغلاقه عام .. وأصبحت الجزيرة بعدها مهجورة تماما حتى يومنا هذا.. حيث منعت الحكومة الإيطالية زيارتها لسنوات طويلة دون سبب واضح.. إلى أن قامت بعرضها للبيع في مزاد علني قام خلاله رجل أعمال إيطالي بشرائها بحوالي 400 ألف يورو.. ولم يقرر حتى الآن ما سيفعله فيها.

[←5]

(5) الروبية هي عملة (الكويت) في الماضي.. وقد تم التوقف عن تداولها مع صدور المرسوم الأميري بتغيير العملة إلى الدينار الكويتي عام 1960.

[←6]

(6) حقيقة.. وقد أسسها المرحوم (محمد أحمد الرويح) عام 1908 من خلال شراء الكتب بالمراسلة من (البحرين) و(الهند) و(مصر).. ومن ثم فرشها على الأرض وعرضها للبيع.. حيث لاقت الكتب آنذاك إقبالا كبيرا مما ساعد المرحوم بعد سنوات على تأسيس مكتبة بالمعنى الحديث عام 1920 وهي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا وتعتبر معلما تاريخيا هاما من معالم (الكويت).

[←7]

(7) (النكرومانسي) هو أحد أنواع السحر.. وقد يكون أبشعها على الإطلاق بالفعل.. وكلمة (نكرومانسي) ذاتها مشتقة من الكلمة اللاتينية (necromantia).. وتعني (نبوءة الميت).. إذ يقوم هذا النوع من السحر على استخلاص الأسرار من الموتى.. إما باستحضار أرواحهم لاستجوابها ومعرفة ما يعرفونه.. أو من خلال أكل بعض من أجزاء الميت!!!.. كأن يأكل الساحر عيني الميت مثلا ليرى ما رآه في حياته.. أو أن يأكل مخه ليعرف كل ما احتوت عليه ذاكرته قبل موته.. فيفتح الساحر أمامه بهذه الطريقة بحرا من خبرات ومعارف وعلوم الآخرين.. والواقع أن جذور (النكرومانسي) تمتد إلى أعماق التاريخ.. إذ يظن الباحثون أنه ولد لأول مرة في بلاد فارس وبابل.. ثم نشره المغول مع حروبهم وغزواتهم عبر العالم كله.. ويبقى السؤال: هل (النكرومانسي) حقيقي؟!.. تصعب دوما الإجابة بصورة قاطعة على الأسئلة المتعلقة بالسحر.

[←8]

(8) المدرسة المباركية: أول مدرسة نظامية في (الكويت).. تأسست عام 1911.. وكانت تقوم على مساهمات المواطنين من تبرعات بالإضافة إلى رسوم تسجيل الطلبة.. حتى قام مجلس المعارف (وزارة التربية حاليا) بضمها عام 1936 لتصبح تحت إدارة الحكومة، واستمر التدريس فيها حتى عام 1985 حيث استخدم مبنى المدرسة بعد ذلك لإنشاء المكتبة المركزية في (الكويت).

[←9]

(9) تتحدث بطلة قصتنا عن ظاهرة يطلق عليها اسم (زينوجلوسي) (Xenoglossy).. وهي القدرة على التحدث بلغة غريبة فجأة دون أن تكون لك أي خبرة سابقة فيها!!!.. كأن تتحدث اللغة الأسبانية على سبيل المثال دون أن تتعلمها أو تعرف منها حرفا مسبقا.. ومصطلح (Xenoglossy) مشتق من اللاتينية وينقسم إلى كلمتين.. (Xeno) وتعني غريب.. و(Glossy) وتعني لسان.. وهي ظاهرة حقيقية تماما.. ولها تفسيران غير مؤكدين حتى الآن.. أحدهما علمي ويزعم أن لا وعي الإنسان يقوم باختزان الكلمات التي يسمعها في ذاكرته حتى لو لم يكن يدرك ذلك.. ثم تخرج تلك الكلمات إلى عقله الواعي فجأة دون سبب واضح.. أما التفسير الثاني فهو متعلق بالاتصال بالجن والسحر.. وهو بالطبع تفسير له الكثير من المعارضين.. وسبب هذا التفسير بعض الحالات المسجلة الغريبة بالفعل.. كما حدث عام 1931 مع فتاة بريطانية تدعى (روزماري) (Rosemary) من مدينة (بلاك بول) (Blackpool).. عندما بدأت تتحدث فجأة باللغة المصرية القديمة التي لا يمكن أن تكون قد سمعتها في أي مكان بطبيعة الحال.. وحين تم سؤالها عن كيفية مقدرتها على ذلك.. أجابت بأن روح زوجة الفرعون المصري (أمنحتب الثالث) تتقمصها.. حتى إن الفتاة أثارت اهتمام المسؤولين كثيرا.. فأجرى الباحثون بعض الاختبارات عليها.. وتمكنوا من تسجيل حوالي 5 آلاف كلمة نطقت بها الفتاة باللغة المصرية القديمة دون أن يتمكن أحد من تفسير تفاصيل هذه القصة العجيبة بصورة قاطعة حتى الآن!!!.

[←10]

(10) الخَرَف هو أحد الأمراض التي تصيب المخ وتتسبب بعجز الإنسان عن التفكير وتدبير أمور حياته اليومية.. حتى البسيط منها!!!.. علما بأن هناك 7 أنواع تقريبا من الخَرَف أبرزها هو مرض (آلزهايمر) الشهير الذي يشكل تقريبا 75% من الحالات.. ومع كل أسف فإن حالة المصاب بالخَرَف تزداد سوءا مع مرور الأيام في جميع الحالات المسجلة تقريبا دون أي أمل في العلاج.. فلا يستطيع الطب سوى تأخير تفاقم المرض قليلا.. والخَرَف يعتمد كثيرا على العمر.. إذ يصاب به تقريبا 3% من الناس الذين تتراوح أعمارهم بين 65-74.. في حين تزداد النسبة لتصل إلى 47% لمن تزيد أعمارهم عن 85 عاما.. وأبرز أعراض الخَرَف التي يلاحظها دوما أهل المريض القلق والتوتر.. والرعاش.. مع صعوبة في الأكل والبلع.. والصعوبة في الكلام وترتيب الجمل.. وقد يفقد المريض القدرة على التحدث مع مرور الأيام.. ولا ننسى العجز عن إجراء المعادلات الحسابية البسيطة.. مع تشويش واضح في الذاكرة.. إذ يصر المريض على وقوع أحداث معينة لكنها لم تحدث مثلا.. أو أن يتحدث عن ذكريات قديمة للغاية ويظن أنها حدثت للتو.. وأحيانا يدمج أحداثا ببعضها ليصنع منها قصة جديدة مهترئة غير منطقية.. ويجب أن يعامل المصاب بالخَرَف بتعاطف تام وألا يحاول أحد أن يضعه تحت الضغط ويحاصره بالمعلومات لمساعدته على التذكر.. فهذا غالبا يصيبه بنوبة غضب.. أو نوبة بكاء.. وينصح الأطباء دوما المصاب بأي نوع من أنواع الخَرَف أن يلازم البيت.. وألا يخرج إلا برفقة أقاربه.

[←11]

(11) تعني بذلك فيلم (بيت الشمع) (House of Wax) بنسختيه في عام (1953) و(2005).

[←12]

(12) هناك اعتقاد شائع بأن الرجال فقط هم من يمتلكون تفاحة آدم.. والواقع أن تفاحة آدم موجودة لدى النساء أيضا ولكنها غير ظاهرة لديهن كما هو الحال مع الرجال.

[←13]

(13) (فيودور دوستويفسكي) (1821 – 1881): واحد من أفضل الكتاب العالميين حيث كان لأعماله أثر عميق جدا على أدب القرن العشرين.. وتحوي كتاباته فهما عميقا للنفس البشرية.. إذ يقدم خلالها تحليلا ثاقبا ودقيقا للمجتمع.. وتعتبر العديد من أعماله مصدر إلهام للفكر والأدب المعاصر.

[←14]

(14) كل ما هو مذكور حقيقي تماما.. ف(هايبرثيميسيا) (Hyperthymesia) مرض نادر جدا بالفعل مصاب به حوالي 20 شخصا فقط في العالم.. والكلمة تنقسم إلى قسمين (Hyper) وتعني (مفرط) و (Thymesia) وتعني (التذكر) أي (التذكر المفرط).. فالمرض يتسبب بذاكرة حديدية للمصاب لكن تتراوح قوتها بين شخص وآخر.. وغالبا ما يتذكر المصاب بهذا المرض كل يوم من حياته بكل تفاصيله لحظة بلحظة ولا ينسى شيئا مهما مرت السنوات.. والواقع أن هذه ليست موهبة ربانية يُحسد عليها المريض كما قد يظن البعض.. إذ يتسبب له الأمر بالكثير والكثير من القلق والتوتر بسبب انهمار الذكريات دون توقف وبشكل غير اختياري.. خاصة مع التركيز على الذكريات الغنية بالمشاعر والأحاسيس.. وغالبا ما تكون تلك الذكريات مؤلمة ومحرجة كما هو الحال دوما مع الناس.. ومن أبرز المصابين بهذا المرض سيدة في أواخر الأربعين من العمر وتُدعى (جيل برايس) (Jill Price).. حيث تحدثت عن حياتها بالتفصيل في كتابها (المرأة التي لا تنسى) (The Woman Who Can't Forget).. وقد أجرت إحدى القنوات التلفزيونية لقاء مع تلك السيدة للتحدث عن حياتها واختبار قوة ذاكرتها أمام المشاهدين من خلال عرض لقطات مختلفة من مسلسلات قديمة.. فاسترجعت السيدة كل أحداث المسلسلات وتاريخ عرضها باليوم والشهر والسنة حين شاهدتها في طفولتها.. بل ومعربة عن استعدادها لذكر ما كانت تفعله حين كانت هذه المسلسلات تُعرض!!!.. وتقول السيدة (برايس) أنها كانت في سن ال 12 حين فهمت أنها مختلفة عن باقي الناس وتتميز بذاكرتها الحديدية.. وتضيف متسائلة عمّا إذا كانت حالتها هذه نعمة أم نقمة كونها تعاني كثيرا من الذكريات المؤلمة التي قالت عنها في كتابها: ((لا تدعني ذكرياتي أنام بسلام.. إنني أتذكر كل يوم وليلة.. حتى أبسط المشاجرات المدرسية مع زملائي في المدرسة في طفولتي)) وهي تفاصيل وصفتها بأنها ((باعثة على الكآبة)).. ولا ننسى أيضا الشاب البريطاني (أورلين هايمان) (Aurelien Hayman) الذي يتمتع بذاكرة فولاذية تعتبر خارقة للعادة.. إذ يمكنه أن يتذكر كل ما مر به في حياته بمنتهى الدقة لدرجة سرد أحداث كل يوم بالتفصيل الممل.. وقد أثار هذا المرض الذي تم اكتشافه حديثا تساؤلات كثيرة عن مدى سعة الذاكرة البشرية وقدرتها على اختزان المعلومات.. كما أشارت أحدث دراسات مركز أبحاث جامعة (كاليفورنيا) إلى خطأ الفكرة الشائعة التي تعتبر أصحاب الذاكرة القوية أذكياء.. إذ لا توجد علاقة بين الذكاء وقوة الذاكرة.. فالذكاء ليس فقط تذكر المعلومات.. إنما ربطها ببعضها وتحليلها والخروج بنتائج منها.. أما في قصتنا هذه فقد تصادف أن الجد كان ذكيا أيضا كما سنرى في سياق الأحداث بالإضافة إلى إصابته بمرض (التذكر المفرط).

[←15]

(15) (لون تشاني) (Lon Chaney) ا (1883-1930) ممثل من زمن الأفلام الصامتة اشتهر بتأديته أدوار الرعب بعد أن فهم كل أسرار الماكياج والتنكر.. حتى أطلقوا عليه لقب (الرجل ذو الألف وجه).. لدرجة أن قلة قليلة من الناس رأوا وجهه الحقيقي.. وقد ولد لأبوين يعانيان الصمم والخرس.. فتعلم مخاطبتهما بلغة الإشارة وهو في سن صغيرة.. الأمر الذي جعله منطويا يكره المجتمع كثيرا ويشعر دوما بالنقص حتى إن صداقاته ظلت دوما محدودة للغاية.. لذا كانت طفولته مختلفة كثيرا عن أقرانه الذين وصفوه ب(غريب الأطوار).. وقد اتجه في شبابه إلى فن السينما حين كون ستوديو صغيرا وقدم خلاله العديد من الأفلام الصامتة التي تعتمد على الماكياج بشكل خاص.

[←16]

(16) سبق السيف العذل: مثل معروف يعبر عن ما قد فات وانتهى ولم يعد ينفع الندم ولا الكلام بشأنه.. وهذا المثل قديم للغاية في واقع الأمر.. حيث قيل في أيام الجاهلية.. وقائله (ضبة بن آد المضري).. فقد أقدم هذا الرجل على قتل تاجر صادفه وهو يلبس قميص أخيه.. فظن أن هذا التاجر قد قتل أخاه وأخذ قميصه.. لكن تبين له بعد ذلك أن أخاه حي وأنه كان قد قايض التاجر بقميصه.. فندم وقال هذه العبارة (سبق السيف العذل).. لتصبح مثلا ما زلنا نستخدمه حتى يومنا هذا.

[←17]

(17) يجب أن نذكر هنا أن كلمة (كمبيوتر) تم استخدامها لأول مرة عام 1613م في رواية وصفت شابا بكلمة (كمبيوتر) أي (الرجل الحاسب) كونه يحمل معه أدوات حساب بدائية كالعدّاد الذي يستخدمه الأطفال في زماننا الحالي.. ليتم استخدام الكلمة مع مرور الأيام لوصف كل جهاز يقوم بعمليات حسابية.. فحتى الآلة الحاسبة تعتبر كمبيوتر بسيط الاستخدام.. ومن هنا أيضا جاء مسمى (الحاسوب) باللغة العربية.. ولا ننسى أن نذكر أن العالم الإنجليزي (آلان تورينج) (Alan Turing) أول من وضع فكرة تصميم جهاز الكمبيوتر الحديث والذي يعتبر الجد الشرعي لجميع أجهزة الكمبيوتر التي نستخدمها في زماننا الحالي.. بل وقام بالمساهمة في صناعته فعلياً وظهوره على أرض الواقع عام 1948.

[←18]

(18) نستذكر هنا ما قاله العالم الشهير (ريموند كروزويل) (Raymond Kurzweil) مدير الوحدة الهندسية في شركة (جوجل) حين أصدر كتابه في فترة الثمانينيات (عصر الآلات الذكية) (Age of Intelligent Machines) وتحدث فيه عن تنبؤاته العلمية بناء على المعطيات التي يراها.. حيث تنبأ بالنمو الهائل في استخدام الإنترنت بعد أن كان عدد مستخدميه لا يتجاوز 3 ملايين فقط في عام 1990.. وهذا ما حدث بالفعل.. إذ وصل عدد المستخدمين الآن إلى ما يقارب 3 مليارات.. كما تنبأ بانتشار وسائل التواصل الاجتماعي وأن تكون الهواتف النقالة بمتناول كل إنسان.. وقال أيضا إن تكنولوجيا المستقبل ستسلب سلاحا قويا جدا من يد الحكومات الاستبدادية التي تسيطر على المعلومة وتتحكم بنشرها وتحريفها كما تشاء.. وهذا ما حدث في العالم العربي حين انتشرت فيه الثورات الشعبية من خلال وسائل التواصل الاجتماعي في شبكة الإنترنت.. كما تنبأ في نفس الكتاب أن الكمبيوتر سيهزم الإنسان في لعبة الشطرنج.. وهذا ما حصل أيضا عام 1997 حين هُزم بطل العالم في الشطرنج (غاري كاسباروف) (garry kasparov) من جهاز كمبيوتر في حدث تاريخي تناقلته وسائل الإعلام العالمية.. وهذه أمور لم تكن متوقعة إطلاقا في فترة الثمانينيات.. حتى إنه هوجم حينها واتهمه الكثيرون بالإفراط في التفاؤل.. لكن اتضح في النهاية أن رؤيته كانت صحيحة إلى حد كبير.. وفي عام 1999 نشر (ريموند كروزيل) كتابه الثاني وكان هذه المرة بعنوان (عصر الآلات الروحية) (The Age of Spiritual Machines) الذي شرح فيه المزيد من توقعاته المستقبلية المذهلة التي ستحتاج إلى صفحات عديدة للتحدث عنها.. ربما أبرز ما ذكره توقعاته بصنع روبوتات دقيقة جدا ستوجد داخل أجسادنا لتكافح الأمراض وتقضي عليها.. مما سيساهم بإطالة عمر الإنسان إلى الضعف أو ربما أكثر.. كما تنبأ أيضا بأننا قريبا سنتمكن من أخذ نسخة من المعلومات الموجودة في أدمغتنا لنحتفظ بها على الأقراص المدمجة ونتمكن من مشاهدتها أو قراءتها على الشاشة.. تماما كما حدث في قصتنا هذه.

[←19]

(19) من باب الفائدة نقول إن هناك خطأ شائعا بين الناس وهو اعتبار البروفيسور والدكتور والعالِم مسميات واحدة لا فرق بينها.. والواقع أن هناك فارقا كبيرا بينها.. فالدكتوراه هو اسم الشهادة التي يحصل عليها الطالب بعد تقديمه لبحث طويل يقوم من خلاله بدعم نظرية معينة.. أما العالِم فهو الشخص الذي يقوم بأبحاث علمية حول موضوع معين ليصل إلى نتائج تفيد البشرية بشكل أو بآخر.. وليس بالضرورة أن يحمل العالِم شهادة الدكتوراه.. أما وصف البروفيسور فهو مطاط ويختلف من مكان لآخر.. ففي (الولايات المتحدة الأمريكية) مثلا يعتبر البروفيسور الشخص الذي حصل على شهادة الدكتوراه ويقوم بالتدريس في الجامعات.. أي أن الدكتور الذي لا يدّرس في الجامعة لا يطلق عليه هناك لقب بروفيسور.. أما في بعض دول أوروبا فيُمنح لقب بروفيسور لدكتور الجامعة الذي يحصل على منصب في الجامعة.. كرئيس قسم مثلا.. وفي بعض الدول الأخرى يتم منحه للدكتور الذي يجري عددا محددا من الأبحاث.

[←20]

(20) الهولوجرام هو وسيلة تصوير وعرض الصور ثلاثية الأبعاد باستخدام الليزر.. حيث يقوم الجهاز بتجسيد الصورة لتبدو كما لو كانت جسما حقيقيا.. وقد توصل إلى هذا الاختراع العالم (دينيس جيبور) (Dennis Gabor) عام 1947 وحصل منها على جائزة نوبل للعلوم.. ولم يعد هذا الاختراع مبهرا كما كان في السابق.. خاصة بعد أن انتشر في معظم مدن الملاهي في العالم وأصبحت هناك مسارح تقدم فقرات وعروض هولوجرامية كاملة.